

الديرة والأنسا



تأليف



وضع بالفرنسية ثم ترجم وروّج

طبع في المطبعة الاهلية بالاسكندرية سنة ١٩١٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يا حضرة القارئ

لحسن الحظ لم أنشأ في زمن هارون الرشيد اذ لو قدر لي أن أوجد في ذلك الزمان لملت القارئ بما يغريه من المدح والاطراء . ولكنك أسهل كتابي بدباجة أملأوها بمرادف الالفاظ الرشيقة صارفاً هي الى التأنيق في الانشاء والتسجيع . ولذا أعد نفسي كما أعدك سعيداً اذ وجدنا في هذا الزمن الذي تمحصت فيه العلوم وتهذبت فيه طرق التأليف العقيمة وبرزت الاختراعات المدهشة فجلت عن عقول الناس حجب الاوهام الكثيفة وأطلقتها من ربة التقليد لما وعته أساطير الاولين فاصبحت قيمة الكتب بما تحويه فصولها من المعاني الجزلة والمبارات المروحة للنفس الخفيفة على الروح والآراء الصائبة الصريحة لا سيما الكتب العلمية فان نظر الجمهور الى

التأني في الفاظها والضعف في تعابيرها أصبح أمراً ثانوياً
فقط نفساً من تلك الوجهة فما أنا بمطريك بمدح ولا
ولا بمزجك بتزيين لفظ . فاني أشعر منك بخضم لا يستهان به
ذلك لان الكثير من المولعين بالمطالمة يملون استيعاب المواضيع
التي تكون على نحو موضوع هذا الكتاب وما أحاول شرحه فيه
أعرف أنك تميل الى رؤية الاشياء رديئة اكثر منها
حسنة وتفضل انتقاد العيوب عن الثمن في المحاسن كالطبيب
الذي يبدأ بقتل حيوان لكي يدرس طبيعته . نعم أعرف كل ذلك
وأكاد انظر لك من مكاني قلب صفحاته قترمه بشزر العيون
وتمد شفئك مشمراً ثم ترده الى مكانه قائلاً هذا عمل ناشئ
في مهذ الكتابة وان احتوى على بعض آراء مقبولة
أخشى كثيراً ان تجري على طريقة ذلك الطبيب
البيطري او أنك كما بدا لك عيب بادرت بهجينه وتسرعت
في الحكم عليه قبل الفراغ من قراءته . على أني أقدم كتابي
للشبان ومن هم في دور التحصيل لا لفحول العلماء ومن قتلوا
الوقت في المكوف على الاسفار الضخمة

فأنت أيها القارىء الفتي عليك أعول وفيك أوئل
واليك اكتب (فهل تسمح أن ادعوك صديقي) ولو رماك الشيوخ
بأن روحك الخفيفة تنفر من التعمق في البحث وطبيعة سنك
تميل بك الى مطالعة الابحاث البسيطة وما يقرب من الملاهي
أكثر منه الى الجد . فلذلك أخشاك أكثر ممن جمدت نفوسهم
منهم . فلتن كنت ملولاً كما يقولون فعلى الدنيا العفا

فهل لك أيها الصديق ان تقرأ كتابي كله قبل ان تحكم
عليه وتطالب الشاؤب اذا اخذك او تترك المطالعة حتى يتجدد
فيك الميل . فالتسلية قبل الافادة وضعته

قد يصادفك فيه ما ينفر ذهنك منه مبدئياً وتستجمع ما
في ذاكرتك للرد عليه مع انه قد يكون داحضاً فيما بعد وائت
تجد ما كان يخطر لك مثبتاً واعلم اني مهما توخيت سهولة التعبير
ومراعاة القواعد المنطقية فلست بمقنهك اذا برز عقلك يصادم
عقلي كما اختلفنا في شيء بدل ان تحلم وتتفهم رأيي أجمع وغايتي
التي اقصدها

واملي ألا يشغلك انتقاد التراكم وبعض الاراء الثانوية
التي لا تروقك كطول المقدمة مثلاً

لم اقصد حين كتابته ان اعلمك ما لا تعلم او ازيد من
تهذيبك كمؤدب فذلك لم يخطر لي على بال . انما رايت كثيراً
من الشبان تنقصهم قوة الملاحظة فتلبث الحقائق امام عقولهم
غامضة وآراؤهم غير ناصجة لقلة من ينتقدها

رايت كثيراً من رفاقي لطيب مرائرهم وطهارة افئدتهم
وسلامة نيتهم يقابلون اغلب القضايا بالتسليم فلا يسخرون
برأيي . مهما كان سخيفاً ولا يزيي مهما خالف الذوق واللياقة ولا
يكفون انفسهم بانتقاد من حولهم وامل هذا الرغبة منهم في
الحياة الهادئة ويفوتهم ان في المعارضة والانتقاد لذة تتوق
اليها القرايح وترويحاً للنفس قلما نجد في سواهما . ألا يسوءنا
ان نشاهد معظم الشبان على رأي واحد في اغلب المواضيع
فلا يتناقشون في امر ذي بال واسوأ من ذلك انقياد اكثرهم
الى الآراء العاطلة لسلامة نيتهم المتناهية . وباليتم ينقادون
بهذه السهولة لذوي الآراء الصائبة وانما ملين بذكاهم وكند
قرايحهم على تمحيص الحقائق . الحق ان هذا عيب شائن في
شباننا وعلة يجب العمل لاستئصالها حتى تتجه العقول للبحث
والنظر في كل شيء فلا يصدقون كل ما يسمعون ما لم يقم على

صحته دليل. والا فأي فرق بين المتعلم والجاهل ان اتحدا الاثنان في النظر والاعتقاد

اسوأ من هذا واغرب الاصرار على الاعتقاد في شيء بعد ان يقوم البرهان على فساد مع ان العقل السليم يجب ان يعترف بالحقائق متى اتضحت له ولو كانت تتخالف مبادئه وما كان يعتقد قبله والا كان ذلك غباوة وجهلا

لا ادعي ان في استطاعتي محو كل ذلك من الوجود لان تلك العيوب وجدت وستوجد دائماً ولكن لا بأس من الاجتهاد في ايقاف تيارها وتقليل انتشارها

لهذه الغاية وضعت كتابي لعل اصيب ببعض ما أومل من القبول

جرى الفلاسفة على استعمال ألفاظ ضخمة تناسب المواضيع الفلسفية واشارات واسماء قد تكون غريبة بالنسبة لمن لم يألف المطالعة في كتبهم فاذا خالفت منهجهم فيما سأكتب فلا افعل ذلك استهانة بالفلسفة او للتقليل من أهميتها بل ليسهل تناوله ويتبادر فهمه لكل قارئ حتى لا يجلس في قراءته كما اجلس امام تلك الكتب مقطب الحاجبين قاصراً جميع حوامي على

فهم ما اطالع فلا اصل اليه الا بصعوبة وكثيراً ما اعبد القراءة
المرّة بعد المرّة مع التأمل العميق فلا اصل الى الفهم جيداً
آبئت على نفسي ان اسلك بالقاري هذا المنهج السهل
مجتهداً ان ادخل على نفسه السرور بقدر استطاعتي ولا اقول
اني قادر على هذه الغاية تماماً فمن القارئ صنف لا يعجزهم
طريف ولا يرضيهم اسلوب فليل هؤلاء أكرر رجائي ألا
يقرأوا كتابي كي لا يجدوه أثقل من الحقيقة

اخص به كل معتدل المزاج يرى الحياة طيبة جميلة ولا
يسأم من كل شيء . اقول ذلك واتوسم انه يروق الشباب
المولعين بالمطالعة الذين يتهمجون بكل جديد حسن فلا يعدم
منهم انصافاً في الحكم عليه . اما اولئك المتشبهون بالقديم الذين
يهدوا على احترام كل متعلق به فليس لي أقل امل في استمالتهم
لاستحسان شيء فيه . وحسبي ان اصح لهم ألا يكفروا انفسهم
شراءه او قراءته لئلا يضيع منهم ثمنه هباء اذ انهم لا يجدون
فيه ما يسرهم م

(احمد راسم)

الله

دعني أسرة افرجية لتناول العشاء عندها ليلة احتفالها
بعيد ميلاد ابنة منها . فلما انتهينا من الطعام مضوا بنا الى بهو
كبير حيث ابتدأت الموسيقى تصدح بألحانها الشجية واخذ
بعض المدعوين يرقصون ويدورون في جميع جوانب المكان
دورات تسر الناظرين . ولما كنت اجهل الرقص جلست
بعزل في جانب المكان أردد الطرف فيما يرسم امام عيني من
المنظر البهيجة وما تحده في نفسي من الشعور والتأثير

وقد جلس الالباء والأهبات يرمقون اولادهم بين الرضى
وابتسامات السرور وينظرون سوامهم نظرات ليس فيهن وداد .
وكان رب البيت ممن يكرهون هذه الحفلات لا سيما الرقص
الذي يرميه بكل العيوب

لذلك كان يظهر عليه الضجر فرائته وقد بلغت منه السآمة
مبلغها . وكان يشخص الى الحاضرين بعينين زرقاوين ملوَّها

السذاجة المتناهية حتى ليخال لك أنه يفتح عينيه لأول مرة
في هذا الوجود

أما زوجه فكانت دأبة الحركة كثيرة الانتقال فهي أشبه
شيء تلك اللعبات التي يوضع في جوفها آلة محرّكة لا تنفك
عن الحركة حتى يتمي معيارها وقد نال منها الجهد وأعباها
النصب وهي توالي الجيء والذهاب . فطقت انظر إليها بعين
التلهي فلما لمحتني أمالت رأسها وابتسمت . فلا أدري أهي تحييني
بالسلام أم تجيئني على سؤال . والحق أني لم أفهم ما حوته
تلك الحركة من الأغراض

تركنتي وقد أوقف الله فجأة هذا التمثال فألقت السيدة
بنفسها على كرسي عظيم في أحد أطراف المكان وأخذت تمسح
العرق الذي يتصبب من جبينها وهي لا تعلم ما تصنع إذ كان
في ذلك خطب جسيم . فان النظرية التي كانت على وجهها قد
ذابت من العرق وتشوّه الوجه بخطوط حمراء مشرّجة . يبكي
ويضدك الناظر إليه في آن واحد . فرزقها الله بصديقة مخلصه
ألقت نظرها إلى ما طرأ على وجهها من التشويه فعملت على
إصلاح شأنها

وكانت الاوانس يرقصن وقبهن من براها الله من الجمال
وصاغها من خلاصة الدلال ومن يرجع الطرف دونهن حاسراً
كأنهن النخس اذا مر والدب اذا رقص والعجوز اذا ضحكت
فما أجدرهن برشق الطماطم والبيض الفاسد الذي يتراعى به
القوم في المرافع

اما الرجال وخصوصاً الشبان منهم فكان عددهم يربو
على عدد السيدات فانقسموا بطبيعة الحال بعد الراقصين الى
قسمين فيذما ترى فريقاً منهم يتظاهرون بمجد الحديث ترى
الفريق الآخر مشتغلين بالنظر الى المخاصرة على ان الفريق الاول
عرفوا كيف يخادعون بعض الراقصات مخادعة الحرباء فيرسل
احدهم نظرات الشغف من طرف خفي الى الانسة التي هي
موضع غرامه واعجابه ايما انتقلت

وكان بينهم احد المحامين الثرثارين لم يفتح الله عليه بشيء
الا التحدث عن نفسه ومناظره في حرفته بينما كنت اسمع
من الجهة الاخرى لفيقاً من السيدات ينتقدن الملابس وقوام
الراقصات بكلام طيه الازدراء وافانين السخرية
لم أطق صبراً وتحوات عن مكاني مبتشماً بما سمعت من

تلك العبارات السمجة فراراً عن المعلن عن نفسه وحرفته
والمنتقدات اللآتي ضايقتني وآويت الى كرمي له مسند كبير
لما آنت منه انه سيكرم مثواي ولكن واأسفاه اذ وقع نظري
على شابين اشقرين من دعاة الملاحاة والظرف قصرا ههما في
شئين الأول ألا يتجعد قميصها المكوي وقد أفلحا فاني كنت
أخيل انها جاءا بها في تلك اللحظة من دكان الكي والثاني ألا
يفوت الناظر اليهما رؤية اضرارها اللامة وجواربها الحريرية
انها كانا جميلين ولكن اى جمال ؟ انك لترى منها جمالا
جامداً يلفت النظر حقيقة ولكنه لا يؤثر على الروح فهما اشبه
شيء بتلك التماثيل الشمعية التى ترى في ما وراء زجاج (ماير
وامتين)

حولت نظري الى زاوية من المكان فبصرت برجل لا
تستطيع لمعرفة عمره سيلا بادن مبطان يظهر عليه انه ناظر
محطة وهو في حديث مع سيده لم يصادفه ما يقطع عليه حديثه
وكانت لهذا الرجل لحية كثيفة ينقصها شيء من النظافة ووجه
احمر يضرب الى الزرقة كأنه لحم نى . اما أنفه فكانت معقنة
كأنها تشكوالة . ولعمري ان فى اشكال الانوف ما يدعو الى

لتأمل فيها . وهذا ما دعاني الى تصفح الوجوه وتدقيق النظر
في الأنوف فوجدت منها أنوفاً حسناً بواسم واخرى فظيغات
عوايس أنوفاً دميمة ربما كانت عنواناً على سفالة ذويها
ومن العرائن ما تخاله ينظر اليك نظرة حقد وغضب او
ما ينظر اليك نظرة الضاحك الساخر ومنها ذو الاسارير الذابلة
فما رايني الا أنف ضخمة قد انفرج جانبها مفتوحة الحيشومين
كأنها حمامة من الحمام الزاجل تحفز للطيران ثم لمحت أنف سيد
آخر تحمل نظارة كانت تتناول الى رؤية قفاه وتكاد تتمزق
غيطاً لعدم استطاعتها الوصول الى أذنيه كما تدل على ذلك
حمرتها المتناهية او كأنها جمال ينوء بحمله ويتعثر في ثيابه وهو
يحاول الجد في سيره عبثاً

وبينما كنت لاهياً بالنظر الى الأنوف اشبه كلا بما
شاكلها جاءني قبل يحدثني بتافه المواضيع فكان البله والغباء
يتطايران من عييه الشبيهتين بعيني جاموسة فازعة او بعيني
كلب يبول (١) .

بهاتين العينين كان يحملني في بقعة فوددت لو استطعت

(١) قد انتقد بعضهم هذا التشبيه والحق انه مستهجن

مكافأته بعشر صفعات محكمات على قفاه

واخذ يشرح لي بصوت كصياح الخصي تشمئز منه النفس
وتهتاج له الاعصاب لماذا خلت مدينة الاسكندرية من دواعي
السرور والملاهي وكم يفضل هذا الفظ الوسكي « الجونيوكوكر »
على جميع اصناف الوسكي وانه يأتي بجواربه ومناديله من
اوروبا الى آخره من بارد الحديث السمج فما لي وهذا. وكان
بين المدعوين رجل متر يظهر انه من ذوى الاملاك الواسعة
يجول بطرفه ذات اليمين وذات الشمال يستعرض الحاضرين
فرداً فرداً بنظرات ملؤها الكبرياء والعظمة وكأن نفسه تحده
انه ذلك الفذ الذي لا يعدله رجل في تلك الحفلة لا من
شيبه راقيه ولا من محامين مفوهين ولا اطباء نطس ونحوهم
ممن جعلتهم التقاليد والفرق ذوي مكانة في المجتمع الانساني .
فما بالك اذن بمن درن هؤلاء ؟ اولئك هم الأصاغر في نظره
لا يساؤون ولو اجتمعوا حرفاً من امضائه الكريم مهما منحهم
الناس من الالقاب السامية والثقة والاعتبار

فها نذا انظر الى ذلك السرى يخفض من غلوائه ويتضاءل
وينحني امام عادة حسناء يجاذبها الحديث وهي تمر بطرف

منديلها على اهدابها بخفة ومهارة فما طارت ذرة واحدة من
« بودرة » وجنتها وما اغناها لو شاءت عن البودرة والتطرية
أصلاً . حقاً انها بارعة في الجمال وحسب صاحبنا أن تكون
كذلك لتلاشى عظمتة امام هيكل جمالها دون كل عظيم
من الناس .

هكذا صرفت نصف ساعة تقريباً وانا اظنها برهة أعد
على الناس محاسنهم ومثالبهم ونفسي تأسف اذ لا بد أن
أكون انا ايضاً موضع تأمل الآخرين ولا بد أن تكون في
عيوب لم أقف عليها ولم اوفق لأصلاحها فكما يدين
الفتى يدان

وكان رب البيت أشفق عليّ لما رأي منفرداً لا أسمى
الالحاً فاقرب مني بلطف قائلاً ما أسمع هذه الحفلات
فاجبته مبتسماً — انها ليست كذلك
— مالي ارى السامة بادية على محياك ؟
— لا ! لا ! لست سماً

رب البيت — تعالى ! تعالى ! لا تحاول ... هلم الى
قاعة التدخين لتجلس مع جماعة الشيوخ فانت لا تعرف

الرقص . ولو عرفته ما زادك الا سأمًا فما الرقص الا طيش ممل .

-- انه ليس كما تصف واني لا آسف لجمالي به

-- لا تقل ذلك وأنا اعرف من المسلمين احتقارهم برقص

وهم مسيئون في رأيهم .

فلما وجدت ان لا فائدة من مجاداته حركت رأسي علامة

التسليم وانسملت ابتسامة التسامح . فوضع يده على كتفي

بدعوني للمسير أمامه الى قاعة التدخين ثم قدمني لمن فيها

قائلًا .

-- اليكم أيها السادة طالب حقوق فلان ابن فلان أحد

أصدقائي وهو شاب ظريف في غاية الذكاء نعم

في غاية الذكاء فطن جدًا .

-- لم أفهم غرضه من الاطالة في اطرائه ذكائي الا ان يكون

ذلك سخريه منه بي ما علينا فقد تظاهروا جميعاً بتصديق

مقاله . ثم قال

-- يسرني منك ألا ترقص لأن ذلك جعلك حراً تخادتنا

ونخادتك واني لا أشتي أن أرى مسلماً ذكياً يوسع لي ان

أحادثه في عوائد المسلمين وعقائدهم لما اجد في ذلك من

الغثّة والتسليّة .

فقلت في نفسي ويحي اسائلي هو عن اكلنا بالاصابع
بذل الشوك واتخاذنا السراري والجواري والوصائف ولهونا
بالترفصات فيما نحن مستلقون على المتكآت والمساوير ندخن
الحشيش ؟

اما قاعة التدخين التي انتقلنا اليها فكانت ذات رونق
وجمال يشف عن سلامة الذوق . ولكن من بها من جماعة
الشيخ كانوا أقل أنسا ومبالاة بقدر ما توقعت ان اجدهم
بعد ما سمعوه من صاحب البيت عند قدومنا .

وكان بين هؤلاء رجل مستطيل الوجه كالصورة التي
يراهها من نظري معلقة وكان الرجل اصلع ذا جمجمة
لماعة لم يترك انصاع عليها الا شعيرات قد أmaalها صاحبنا كأنها
تضبان وفي فمه لفاقة التبغ (سيجار) مشتعلة
كهود من الحطب وهو مع ذلك يستقي الاخبار من جريدة
كبيرة الصفحات . وفي زاوية اخرى من المكان جالس ثلاث
رجال مسترسلين في الحديث

وجلس صاحب البيت بجانبني يحادثني بصوت خافت

كَأَن بَجْوَارِنَا مَرِيضٌ نَخْشَى عَلَيْهِ أَنْ نَعْكُرَ صَفْوَهُ . فَلَمَّا بَدَأَ لَهُ
أَنِّي أَخَالِفُهُ فِيمَا يَقُولُ رَفَعَ صَوْتَهُ حَتَّى يَسْمَعَهُ الْحَاضِرُونَ
فَبَجْتَهُمْ حَوَانَا لَأَشْكُ أَنَّهُ تَعَمَّدَ ذَلِكَ الْفَاتِمَا
لَأَصْدَقَانَهُ كَيْ يَسْمَعُوا مَا يَعْرِضُهُ عَلَيَّ مِنْ أَفْكَارِهِ الْعَصْرِيَّةِ
يَا عَجِبًا لِلرَّجُلِ الَّذِي كَانَ هَادِتًا رَزِينًا مِنْ بَضْعِ دَقَائِقِ
بَنْقَابِ دَفْعَةٍ وَاحِدَةٍ وَيَثُورُ كَالْبَعِيرِ الْهَائِجِ فَيَضْرِبُ الْمَائِدَةَ بِمَجْمَعِ
يَدَيْهِ وَيَقَهْقَهُ لِيخْزِنِي كُلَّ ذَلِكَ لِيَسْدَلَ الْحَاضِرِينَ
عَلَى غَيَاوَتِي لِحِجْرٍ مَخَالَفَتِهِ فِي الرَّأْيِ وَلَمْ أَقْلُ مَا يَسْتَوْجِبُ غَضَبَهُ
وَلَا مَا يَبْعَثُهُ عَلَى هَذَا الْهَيَاجِ فَاسْمَعُ أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ مَا كَانَ
بَيْنَنَا قَالٌ — عَلِمْتَ أَنَّكَ مَيَالٌ إِلَى الْجَدَلِ

— قَلِيلًا !

— أَمَادِي أَنْتَ أَمْ دَهْرِي ؟

— كَلَّا ! إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ أَوْمَنُ بِاللَّهِ كَمَا يُؤْمِنُ الْمُسْلِمُونَ

وَأَنْ أَهْمَلْتُ مِنْ وَاجِبَاتِي الدِّينِيَّةِ

— وَلَكِنَّكَ مُؤْمِنٌ ؟

— نَعَمْ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ

— تَتَسَمَّحُ لِي بِمَا أَنَّكَ لَسْتَ مِنَ الْمُتَنَطِّعِينَ فِي الدِّينِ

ولاً من غلاته ان نتحاور في امره لعمرى انه ليلذ لي البحث
في تلك المواضع الفلسفية مع المؤمنين لأنني اراهم يضحكونني
كثيراً . فهل لي ان اسألك ؟

— سل ما شئت فانه لا يضرنى ان اسمع منك ما تقول
دون ان يصير ذلك شيئاً من عقيدتي

— حاشاى ان اعيب عليك دينك او أحاول ان أغير
عقيدتك فلست من المبشرين . انا اريد بالمحاوره التسليه
والتلهي . فليتك تدري كيف يبلغ مني الضجر بتلك الحفلات
الراقصة التي احبها مضطراً ارضاء لزوجي وهؤلاء ضيوفي لا
يتناولون من الحديث الا ما هو عن الرقص والقيعات والملابس
وما شاكلها وليت ذلك كان قاصراً على ساعة او ساعتين فقد
يصبر الانسان على مثله اذا قل ولكن المزعج المقلق ان تضطر
الى سماعه ثلاث ليال طوال كل اسبوع

لذا أعد اجتماعي بك الليلة فرصة ثمينة فاستمدكي
أضيائك باسئلي وان كنا في ظروف غير مناسبة للجدل .
— هذا لا يضايقيني يا سيدي .

قلت له ذلك ويعلم الله مقدار كراهتي لتلك المناقشات

الدينية التي لا تنتهي ولا تنتج ولكني تصبرت فقال

— ماذا يدعوك الى الايمان بالله ؟

— ماذا يدعوني ؟ ماذا يدعوني ؟ هذا سؤال عجيب

— عجيب هو كما ترى ولكنك اذا انعمت النظر فيه

وجدته ليس بالعجيب . انا نوؤمن بالله تقليداً لا باثنا وقومنا .

حقق النظر بنفسك . هل ترى صدق ما يقولون فان كانت

صدقا فما برهانك ؟

— ليس هذا بعسير وهل يحتاج المرء لتعمق في الفكر

حتى نوؤمن بالله . ولقد شغلني هذا يوماً اذ كنت صغيراً

فسألت استاذي الذي اجابني بما اقنعني

— ما برهانه ؟ وحقه ضاحكاً

— لا اذكر كل ما قاله الا انما اذكر جيداً قوله لا تكثروا

البحث في الاله فلما ألححت قال لي انظر الى معجزات النبي (صلى الله عليه وسلم)

التي منها القرآن الكريم وهل خلق العالم من غير خالق . انظر

الى هذه المائدة هل تراها في مكانها وعلى حالتها ان لم يجمعهما

نجار وهل ترى صنعة من غير صانع وهل المسببات توجد

من غير اسباب ؟ فكيف يكون الكون لا باريء له ؟

خالق برا الكون وسوى البشر وخلق الدواب ۞ يؤتينا أكلنا
من الثمرات ويتوفى الأنفس اسمه العزيز الحكيم الذي أحسن
كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم سواه ونفخ
فيه من روحه ۞

ندعوه الله وان اخلفت الأمم في تسميته فكل تدعوه
بأسم يخالف ما تدعوه الأخرى وتعبده على طريقة تخالف
الأخرى ولكن الأمر الذي يخضع امامه العالم وتدين له
القلوب هو تلك الحقيقة حقيقة وجوده تعالى . كل له قانتون
وبوجوده مصدقون « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار
وهو اللطيف الخبير » وكم ذكر أستاذي فوق ذلك عبارات لا
اذكرها الساعة

— كل ما قاله لك استاذك حسن ولكنى لا أرى فيه شيئاً
جديداً فلقد سمعت أنا أيضاً من استاذي مثله فهل يكفيك
هذا كبرهان ؟

— ولم لا ؟

— لا تقل هذا أيها الشاب فقد كان العالم يقتنع بمثل
هذه الأدلة في القرون الأولى اما في ايامنا هذه فهو لا يقنع

حتى صفار الطلبة فكيف رضيت لنفسك ان تقنع به ولم تطالب
الزيادة من البحث والتنقيب ؟

— لا اكتم عنك اني لم ابحث منذ زمن طويل في المواضيع الدينية
ولا أدري لماذا لا يقتنع الناس بتلك البراهين ؟
— ألا ترى ذلك ؟ ألا ترى ذلك ؟

قال ذلك وكرره متهمكاً بعد أن رفع عقبرته وجهور من
صوته ضاحكاً ليظهر من جهلي وبساطتي

فلا انكرك أيها القاريء ان ارتفاع صوت هذا الرجل
قد رفع الدم الى رأسي من الغيظ والحلق وانني اقول ذلك الآن
وأعترف صراحة بحرج موقعي الذي جرتني اليه إذ ذاك صخبه
وضحكه وارتفاع صوته كأنه استاذ يلقي الدرس على خمسمائة
طالب او خطيب في موقف مشهود قال

— هذه هي السخافة بعينها وما مسألة النيجار والمائدة الا قياس
فلسد بل هو أشبه شيء بمضحكات « شكسبير » فكيف تتخذ
من الأرض أي المادة برهاناً على وجود خالق ؟

عند ما سمع اصحاب الرجل قوله هذا انتفوا حولنا وحملقوا
في نفائتي قواي وجمدت في مكاني لا استطيع الكلام وكان

كلما علا صوته زادت حمرة وجهه وامتقع لونه كأن ما كان
يفر من وجهي من الدم يذهب الى وجهه على نسبة ثابتة . قال
— كيف تجرأ على القول بحدوث المادة وإمكان خلقها ؟

ألم يصل الى علمك نظرية الكيمياء البسيطة التي لا تخفى
على كل طالب شهادة ثانوية . وانك لتري في كل كتاب
كيمياء اجماع العلماء على ان المادة لا تنعدم (١) كما اثبتوا ذلك
بالتجارب الصحيحة فهل انت ترمي بالعلم عرض الحائط ولا تقيم

(١) من أراد مراجعة هذه النظرية فعليه بكتاب دروس
الكيمياء تأليف (دوتجن) المقرر في مدارس نظارة المعارف المصرية
في الجزء الاول صفحة ٨٦ بند ٢١ وصحيفة ١٥١ بند ٣٨ نجد الكفاية
من الشرح والتطبيق على الرسم . وقد وقفنا على زيادات املاها بعض
الاساتذة على تلاميذه بمدرسة رأس التين وهي :

المادة قابلة للتحويل من حالة الى حالة ومن صورة الى
صورة اما بتغير طبيعي او كيميائي واسكنها غير قابلة للحدوث او الانعدام .
فالمنيزيوم مثلاً عند احتراقه في الهواء زاد وزنه وقد علمنا ان الزيادة
نشأت عن اتحاد أكسجين الهواء به فهذا الكسب في وزن الجسم غير
مستحدث اي ان الزيادة لم توجد من لا شيء .

فوزن فلز المنيزيوم + وزن الاكسجين الذي اتحد معه = وزن
اكسيد المنيزيوم الحادث

لحقائقه وزناً أم يقف بك البحث عند مأددة النجار وكلام استاذك .
— اراك احترمت فوق ما يلزم واخذت منك الحدة ونسيت
ما قلته لك من اني غير ضليع في المباحث الدينية . نعم اني
اعرف تلك النظرية الكيماوية التي ذكرتها فماذا تريد بها ؟
— أتصرف تلك النظرية ؟ الحمد لله . وتعرف كيفية اثباتها
بطريقة الشمعة داخل الزجاج ؟

ولكن لو اخذنا شمعة مثلاً كشاهدنا عند احتراقها ان شمعتها
وذائبها يختفيان فلو وضعت مشتعلة في كفة ميزان معرضة للهواء فإن
جميع وزنها ينعدم تقريباً . فهل معنى ذلك ان مادة الشمعة قد قُتِيت .
ليدان أنها لم تنعدم مادتها تقول : خذ زجاجة لمصباح (لمبة) وسد
اسفلها بقطعة قلاب بها ثقوب كثيرة وضع الشمعة في احد هذه
الثقوب وضع في أعلى الزجاج شبكة سلكية تكون سطحاً
داخلاً وضع فوق هذه الشبكة قطعة من المودا الكاوية لا تنصص
نواتج الاحتراق (غاز ثاني اكسيد الكربون وبخار الماء . بعد ان تفعل
ذلك كله علق هذه الجهاز في كفة ميزان وعادله بثقل الكفة الاخرى
ثم اشعل الشمعة بسرعة فبعد قليل ترى ان للكفة التي بها الشمعة قد
رجحت وهذه دليل على زيادة عادية فمن اين امت هذه الزيادة ؟
لا شك ان مصدر زيادة الوزن هو الاكسجين الجوي . من هذه
التجربة وامثالها استنتج العلماء ان المادة لا تنعدم ولا تستحدث واذا
احتفظت في جميع الاستجة فان وزنها يساوي وزن الاجسام المتفاعلة

— اعرف هذه التجربة فما لها وانكار وجود الآله ؟

— الامر هين اذن . فانعم النظر فيما اقول .

قال ذلك ونظر الى من حوله ليتثبت من اهتمامهم به
واصفائهم اليه ثم عاد الى تبجيحه فقال

— اتفقنا على ان المادة لا تنعدم . قد برهن العلم على صحته
في جميع انحاء العالم من مائة عام تقريباً . فما معنى المادة لا تنعدم ؟
ان معنى عدم قابليتها للفناء هو انها لا نهاية لها اي انها لا
تصير صفراً .

فالنتيجة المنطقية هي . انه ما لا آخر له . لا اول له
والصفراً أي العدم لا يتحول الى مادة

ولما كانت المادة لا آخر لها . وقد ثبت ذلك . فلا
اول لها . وبما انها لا اول لها . فلا خالق لها . من هذا
نستنتج ان ليس للعالم خالق ولو فرضنا ان له خالقاً لكان له
اول . وهذا تقيض ما اثبتنا . فالعوالم كلها والناس والأجرام
السماوية وسائر الكائنات يستحيل ان يكون لها خالق . لانها
من المادة والمادة لا تخلق . فترى قولك ان الله خلق العالم
كلام يأباه عقل المتعلم . لانه مناقض للعلم

وما نظرية النجار والمائدة التي تقيمها دليلاً على وجود الخالق الا مغالطة فإنه صنعها اي ركب اجزاءها ولم ينشئ مادتها اي خشبها ومساميرها فضربك المثل بها خروج عن الموضوع . فكيف تقبلها حجة ؟ أجب :

— ليس عندي ما ادحض به نظريتك فانها والحق يقال عليها مسحة من الصواب وان كنت لا ازال على يقيني مؤمناً بالله سبحانه وتعالى

— انك رجل تكذب على نفسك . ولا اظن احداً يجمع بين النقيضين الا غلاة المسلمين الذين يلمسون الحقيقة بأيديهم ولا يعترفون بها

— انني انحنى امام استنتاجك هذا ما دمت لا استطيع له نقضاً وان اعترافي بذلك لا يثبت صحة قولك ولا يغير من عقيدتي المبينة على الحقائق المنوية والحب والوجدان وليس بات من طريق الحقائق العلمية والاستنتاج

— وكيف تصر على اعتقادك اذا وضع الحق بالدليل والبرهان بلا سبب تبديه لي الا انك اعتقدته ولا تريد الا ان تبقى عليه ؟ . فهل تستعي ان تهر بانك كنت على ضلالة عشرين

عاماً ؟ ألا تغفل ؟

— انك يا سيدي من الفصاحة بمكان ولكن لا ارتاح لما تقول بل اراني بعد ما سمعت كل براهينك باقياً على اعتقادي .
ربما اتحول في مستقبل الايام

وقد يكون في بضعة أيام او اكثر . . . بعد التفكير والتروي . . . اما الساعة فيقيني هو هو . . . فحدثني كيف يعتقد ملايين المتعلمين في الله اذا لم يكن له وجود ؟

قال - من اين علمت انهم في وجود الله يمتقدون ؟
ألا أنهم يقولون ؟ انهم يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم .
وهل متيقن انت ان ما تسميهم متعلمين حقيقة هم عالمون ؟
فاصغ اليّ : اذا تظاهر الكثير من اولي العلم بالايان فلا سباب
انا اذكرها لك . انما الأديان والاعتقاد في الله من صنع
الانسان أوجدها لتحسين احواله وطلباً لمكارم الاخلاق .
وانت تعلم ان السواد الاعظم من الناس جهلاء ناقصوا التربية
يميلون الى الشرور قد فسدت طباعهم ونفوسهم فلو اردت
هديهم بطريق الاخلاق أعيتك الحيلة وهل تطلب من اللص
ان يتعد عن السرقة بالوعظ والارشاد مع انه لا شرف عنده

ولا شمم ولا شعور ولا احساس ؟ فأبي رادع لذلك الشرير
غير دين ينهأ ويذجره ويعده ويمنيه ؟

خلق الانسان لنفسه المأ وشرع ديناً تراه يعمل على
نشره في سائر انحاء المعمورة

وما الدين الا بحث في الاخلاق يقصد به تقويمها
وتهذيبها يشب المرء عليه فيصبح وقد استقاه طفلاً عقيدة في
شيوخته وهيئات ان تنزع من قلبه .

عقيدة في إله يراقب حركاته وممكناته وينظره اينما
توجه ثم يعيده بعد موته ليجازيه على سيئاته وحسناته . ويلقى
بالمسيئين في نار جهنم خالدين فيها كلما نضجت جلودهم بدلهم
جلودا غيرها . ويحل المتقين في دار كرامته وفردوس رضوانه
ليروا من انواع النعيم والهناء والمسرة ما لم يكن يخطر لهم على بال
اله خلق العالم في ستة ايام وكان عرشه على الماء

هكذا ترى الانسان يعمل الخير ويتجنب الشر رغبة في

الوعد وخوفاً من الوعيد

— فهمت ما تريد

— أليس كذلك ؟

ثم التفت الى اصحابه فرآهم قد تشتتوا لانهم لم يرقهم
مجادلتنا . حينئذ اجترأت على سؤاله فقلت
— اني معك فيما قلت ولكن امامي صعوبة اخرى
— وما هي من فضلك ؟

— نرى ان المادّة متحركة . فالشمس وباقي الكواكب تسبح في
افلاكها واكل منها حركتان . داخلية وخارجية فالارض مثلاً
متحركة . هذه الحركة لا بد لها من قوة تنشأ عنها . لانه لا
حركة من غير قوة ولا قوة من غير قدرة . وما هذه القدرة
العظيمة الا قدرة الله تعالى

— ان كلامك هذا ككلام صفار الطلبة ولماذا لم تبحث
عن سبب مصدر تلك القوة حتى لا تلجأ الى نسبتها لقدرة الله
ولكن تلك عادة المؤمنين كلما اعياهم البحث في حقيقة شيء
نسبوه حالاً الى الله

— اذن وضع لي مصدر تلك القوة فاني اراك استضعفت
استدلالي

-- تريد ان تعرف المحدث للقوة التي تنشأ عنها الحركة ومتى
أحدث ذلك ؟ هذا امر سهل .

ان الحركة الداخلية من لوازم المادة فمتى وجدت المادة وجدت معها تلك الحركة (دون احتياج الى قوة خارجية تنشأ عنها) فهي التي تجذب الذرات فتماسك حتى تتكون منها المادة . لا يمكننا ان نتصور مادة مجردة عن قوة الجذب بين ذراتها او بعبارة أخرى عن الحركة الداخلية

قد بينت لك قبلا ان المادة لا اول لها .

ووضحت لك الآن ان الحركة الداخلية ملازمة للمادة

فبذلك تكون تلك الحركة لا اول لها اي ازلية في المادة .

فكيف يكون لها محدث بعد اثباتنا ان ليس لها اول ؟

فما قولك في هذا ؟

— حسن ! هل لك ان تخبرني كيف تتحرك الكواكب في

الفراغ من غير قوة ؟

— نعم ان حركتها تسببت عن قوة احدثتها ولكن المادة لم

تعد محتاجة الى تلك القوة لتسيرها في الفضاء

— لا افهم مرادك جيداً

— اصغ الآن الى المزيد

هل عرفت في الطبيعة ما يسمونه بقانون الأنترسيا او

التصور الذاتي ؟ معنى ذلك ان الجسم المتحرك لا يزال آخذاً في حركته حتى يصادفه سبب خارجي يضطره الى الوقوف وكذلك الجسم الثابت يبقى ثابتاً حتى يطرأ عليه سبب خارجي اي قوة فيندفع في المسير

وبعبارة أوضح . لو قذفت بحجر في الهواء فإنه يستمر في سيره بقوة القذف لو لم يكن منجذباً الى الوقوع على الارض بثقله الطبيعي اي بجاذبية الارض له والضغط الجوي عليه وبمصادمته الهواء الى آخره . . . وبالاختصار لو لم يصادف الحجر ما يوقف حركته لأستمر متحركاً في الفضاء ابداً بقوة القذف الاولى

أظن ان هذا معقول

ان المادة سابحة في الفراغ من غير قوة تدفعها الآن على الاستمرار في حركتها الا بما اكتسبته من القوة التي نشأت عنها في بادىء الامر فهي آخذة في حركتها حتى يعترضها عائق في هذا السبيل . ولست في حاجة ان اقول لك ان المادة اعني جميع الكواكب تسبح في الفراغ على هذا القياس . لم يبق علينا اذن الا ان نعرف متى ظهرت تلك القوة

الاولى في المادة ومن الذي احدها ؟ فنقول علمنا مما تقدم
ان المادة والحركة وجدنا دائماً معاً . فلا مادة بلا حركة . ولا
حركة بلا قوة .

قد ظهرت آثار تلك القوة في المادة حين وجدت المادة
ومن حيث اثبتنا ان المادة لا بداية لها . فالقوة ايضاً لا
بداية لها في المادة لتلازمها حتماً

فما ان القوة أزلية . فلا يمكننا القول بان لها خالق .
هل فهمت ؟ اسمع ! اسمع ! نعم هذه القوة تفوق حد الوصف
واكنا لا نستطيع بحال ان نسميها الله لانها لم تخلق المادة .
ولا نستطيع ايضاً ان نتصور ان القوة التي تسبب الحركة
الخارجية مها عظمت تكون مفكرة مدبرة صانعة توجد جنة
ونارا آميز بين الحيث والطيب

فاماذا نتمسك باعقادك من غير دليل
لا يفوتك ان هذه القوة الخارجية . ولو هالك شأنها
ليست الا قوة محركة على الاكثر كالقوة المحركة لقطار .
أفلا ترى انه من الصعب تصورك في مثل هذه القوة
القدرة على الحكم والقضاء بين الناس وتدير دقائق الكائنات .

هنا وقف صاحبنا فقلت

— انك من انقضاة بئكان وئبئل لئ انك لا تصءق بشئء
فئ الوءوء فئا ظئك بئما بعء الموء
— لا شئء

— وائن ءذهب الروح

— الروح ؟ كآن لنا روءأا ! اءءءء ائضأا بوءوء الروح ؟ اذن
لئس بئعئء أن ءءءء فئ ووءوء ما هو اءرب . فلا بئعء ان
ءسألئ عن ابلس والشئاطئن والملائكة ونءوها من الءراءاء
الئئ لا بوءوء على ووءوءها ءلئل . فاسمع ما اقول : ان كل ما
لئس بماءة . لا ووءوء له الا فئ المءئلل والروح على ما بقول
علماء الاءبائن لئسء ءسمائئة ائئ لئسء من الماءة . او بعبارة
اءرى لا ءمس ولا ءمس . وقء عرفت ان ما لئس بماءة لئس
بشئء ائئ لا بكون الا فراغأا ائئ عءمأا . والءءم ضد الوءوء .
فكئف بك وائن شاب مءعلم ءءءء فئ مءل هءا ؟ ألم ءر فئ
ءلك ما بعبلك ؟

— ءع عنك لومئ الآن فهل ءقءع برأئك هءا ان لا ووءوء
لءبر الماءة ؟

— اي نعم ويستحيل عليك تكذبي . والا فهات برهانك
— هل الكرم والبخل ومحبة الظهور والحسد اشياء لا وجود لها
لانها ليست من المادة ؟

— يا عزيزي هذه أسماء معاني لا غير . اي الفاظ نعنيها لا
وجود لها الا بموصوفاتها . نعم يوجد الكريم والبخل ومحبة
الظهور والحسد

ولكن فلا وجود للكريم والبخل مثلاً الا اذا تصورت
امامك رجلاً كريماً او بخيلاً . وعليه لا يمكنك ان تصور
الكرم مجرداً عن كريم اي مجرداً عن مادة . فهو اذن غير
موجود وان وجد في اللغة . وما يقال عن الكرم يقال عن الرحمة
والبخل والحسد وغيرها من المعاني . ارجو ان تكبر
قد فهمت .

— ظاهر ما تقول فما رأيك في القوة والكهرباء
— لا أرى فرقاً يا عزيزي بينهما وبين ما سبق القول عليه
فالقوة لا توجد الا حيث توجد المادة . ازل المادة نزل القوة .
والا فكيف ترى قوة مادة مثلاً بعد ان تزيل المادة ؟ هل
اقتنعت . سل ! ما شئت ان بقي عندك شك

— اجل ! ان الرجل منا يفكر . والفكر ليس بمادة ومع ذلك موجود مستقول انه كالقوة اى انه لا وجود للفكر الا بوجود الانسان . وما الانسان الا مادة . أليس كذلك ؟

— اي نعم ! اي نعم ! هل عدت الى رشذك الآن ؟ .
يسرنى ان تهتدي بنفسك كلما اقضح لك الدليل . واليك الصوت مثلاً . فلا وجود له منفرداً ضع ناقوساً في فراغ لا هواء فيه وانت لا تسمع للناقوس صوتاً لان الصوت لا يتكون الا بوجود الهواء اي المادة . واكرر لك القول . كل ما ليس مادة وكل ما ليس له علاقة بمادة فهو غير موجود

من العبث اذن القول بوجود الفكر من غير مفكر . وما الفكر الا حالة من حالات المنح وعرض من اعراضه ما دام المنح سليماً . فاذا اعتراه علة فلا وجود للفكر . لعلك افتمعت هذه المرة يا عزيزي .

رأيت صاحبي اناخ علي بكلكله واستجمع كل قوة في نفسه لاعترافي له بقصر النظر والعجز عن إقامة الدليل على معتقدي . وكنت اراه يتهال سروراً كلما طمع في اقناعي .
فقلت له

— أني اسلم لك جدلاً ما أتيت به من الأدلة في اقناعي الى
اجل غير بعيد . واني ازمع البحث والتفكير فيما أوردت
وسأدعوك للمناظرة لاول فرصة حتي لا أؤخذ على غرة كهذه
المرة . وارجو ألا تتخذ قصورى الوقتي دليلاً على الغلبة او اني
سلمت لك نهائياً بصحة ما تقول

— لك ذلك . واستعن بمن تريد وراجع ما شئت من الكتب
فأني شغوف بالمناقشة واكاد أجن بها جنوناً

— أرى على وجهك سياء الواثق من نفسه كل الوثوق
— لاني على الحق وكل ما سمعته مني اساسه الاستنتاج
المنطقي والعلم الصحيح

— اطر نفسك بما شئت واغبط بما أوتيت من قوة الجدل
وزلاقة اللسان فموعدنا قريب . قد ازف وقت الرحيل وأذنت
الليالة بالانتهاء . والحق يقال ان الفصاحة تندفق من لسانك
حتي لا يوقف تيارها ما يعارضك به مناظرك . ما شاء الله
— غير غريب ان ترى مني ذلك فقد اعتدت المناقشة والجدل
في هذه المواضع من زمن بعيد

— اما انا فلم اعتدها بالمرّة . ولذا لم اوفق لمباراتك في قوة

بياناتك هذه الليلة على غير عدة

— تشبع ما شئت من علم اللاهوت فأني على يقين من أن
احقر مادي او دهري ينتصر عليك بسهولة متى جادلته
— اتظن ؟

— اني لوائق متأكد

— الملتقى قريب يا سيدي . استودعك الله

— هذا ما ارجوه فسر مصحوباً بالسلامة . انك لذكي ومن
كان مثلك يذل بذكائه صعوبة البحث في هذه المواضع وان
أعيت سواه .

يا للعجب ؟ يراني صاحبنا ذكياً الآن لكوني تملقته
بكلمتين ولولا ذلك لحكم عليّ بالبلاهة الى الأبد . فارقت
هذا الرجل وبرأمي صداع مما أجهدني به .

يا لها من ليلة ! قضاها القوم باللهو في الرقص والمغازلة
وتشنيف بالخان الموسيقى الشجية . وقضيتها بكد القريحة في
مناظرة ذاك الفيلسوف الثقيل واجهاد النفس بالاصفاء لسماع
ما يبدي وما يعيد كأنه اراد بذلك الانتقام مني حيث لم
يستطع ان ينتقم من عشاق الرقص وحفلاته . ويعلم الله كم

كنت أضيق صدرًا لسماع كلامه ولم كان ثقيلاً على أذني
فكأنهما اذا صغى بهما اليه اناه حملته بين يدي لمريض يلفظ
فيه ما يرجعه من غرغرة وتفل

فارقته وركبت عربة قافلا الى بيتي متخدًا طريقي
رصيف البحر . كان البحر اذ ذاك ساكنًا كأنه مخلوق عظيم
انهكه النصب فاستلقى على ظهره يستنشق الهواء العليل شاخصاً
يبصره الى السماء التي أخذت زخرفها وتزينت بتوائم النجوم
وما يحوط ذلك من جمال وبهاء . وبين برهة واخرى يجري
في قبة الأفق شهاب فيختط قوساً يحترق ظلمة الليل وتستدير
به زرقة السماء فتزداد جمالا . هكذا قطعت طريقي تحت ستار
الليل الى ان وصلت البيت فشعرت بشيء من الراحة . وقد
افسح من صدري نوعاً ما اختلسته من انفاس النسيم . عندئذٍ
ناولت الحوذني اجرتة ويظهر انه استكثر الاجرة فأحدث
ذلك في نفسه سروراً اطلق لسانه بالدعاء لي اذ قال الله بحفظك
ويطول عمرك ويفنيك و... و...

فكدت اصيح في وجهه بان الله غير موجود ما دامت
المادة لا تنعدم ولأن الانرسيا والحركة الداخلية والخارجية

والضغط الجوي هي المكونة لكل شيء في الوجود . همت أن
أشهره بهذا الحاطر ولكنني عدت فحسبت أن يظنني مجنوناً
فأسرعت بالدخول .

لا اكتم اني ما خلوت بمخدعي حتى شعرت بأنفعال
غريب يخالج نفسي فتثور وتندفع نحو الخطابة والبرهنة
ولكنني لم اجد من حولي من يناظرني . وقد خيل لي ان اقف
أمام المرأة فأناظر شخصي . داخلتي عظمة كالتي تحدثها النسوة
في نفس التمل فأكبرت نفسي اذ ذاك وتصورت اني قادر على
أقتناع من يناظرني أياً كان في المادة والروح ووجود الآله
الى آخره . مما سمعته من ذلك الفيلسوف .

خطر لي ان اكتب لأستاذي في اللغة العربية سابقاً
لبوافيني في صباح الغد فأخذت من فوري أبحث عن عنوانه
في جيوبي فلم أجده . ثم في خزانة ملابسي حيث لم اترك
واحداً منها بغير بحث في جيوبي فأطرحه على عجل وأتناول
غيره حتي اتيت على كل ما في الخزانة من الثياب التي صارت
أمامي كوماً . فلما اعياني البحث وسمت جلست فوقها أسفاً
مكتئباً كما جلس من قبل « نابليون » على بقايا « موسكو »

اخيراً عثرت على العنوان وجاءني استاذي في الغد ولا
تسل عن اندهاشه حياء رجوته ان يحضر لي بعض كتب ديبية
متينة تثبت وجود الله والروح واخرى تبحث في فلسفة الأديان
ولم اشك انه ظني في تلك اللحظة مجنوناً فقال
— لمن احضرها ؟ ألا تؤمن بالله

— ان الشكوك تساورني

— لا تخف . . . هذا عارض بسيط لا يلبث ان يزول من
نفسه فلا تتجشم مطالعة الكتب الفلسفية فليست مريحة
للخاطر

— لا بد لي من المطالعة اذا اردت ألا تغلبني الشكوك
— ما أخالك الا فاقد الصواب والا فمن ذا الذي بذر هذه
الشكوك في قلبك ؟ اجلس وانا أبرهن لك على وجود الآله .
ما حملك على الشك في وجوده تعالى ؟

— اسباب علية . ارجوك ان تبعث اليّ بما أريد من الكتب .
فادقني الاستاذ بعد هنيهة وهو يحاول ان يخفي امتعاضه
مني لأستسلم الي الشك وتعويلي على الحقائق العلمية ولم يجد
بدأ من ارسال ما طلبت حرصاً على عقيدتي .

قرأت اربع كتب فلسفية فاشتقت لي غليلا اذ لم اعثر
فيها على ما ادحض به حجج مناظري بالأمر . مضى علي
شهر بعد تلك الليلة وانا احادث وناقش كل من لقيت ممن
اتوسم فيه العلم والمعرفة والميل الى الجدل فلم اقف على شيء
جديد الا ما سمعته من شيخ حاد الذكاء دقيق النظر يظهر من
عبارته التي اوضحها بنصها الان

سبحان الله أيشك عاقل في وجود الله

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد الا على اكمه لا يعرف القدر
لكن بطننت بما أظهرت محتجيا فكيف يعرف من بالعرف قدسترا
يا هذا ان الله واضح كالنور وكل ذي عينين يؤمن
بوجود النور نهائرا لأنه يرى به الاشياء مع انه لا يرى النور
وليس يصح في الازهان شيء . اذا احتاج النهار الى دليل .
ما منعك يا هذا ان تؤمن بوجود الأله كما تؤمن بوجود النور
او الظلمة فالظلام يوجد بذهاب النور ولكننا لا نرى الظلام
مع اعتقادنا بوجوده . ادخل حجرة حالكة الظلام لا ينفذ اليها
النور من اية نافذة فلا ترى شيئا سواء أغمضت
عينيك ام فتحتها فهل انت في تلك الحالة ترى الظلام ؟ او

يتسرب الى ذهنك الشك في وجوده معك لانك لا تراه ؛
لا شك ان الشيخ كان متعلماً غير انه لا يحسن التعبير وترتيب
ما يحضره من المعاني فقد كان يشط ويتهور اثناء مجادلته فلا
يزن ما يقول بميزان العقل ولا أدري ان كان ذلك نوعاً من
الهوس الذي قد يعتري كثيراً من المشتغلين بالابحاث الفلسفية
لانه استطرد فقال : ومع ذلك ترى الله في البراعة كما نراه في
السراج فانه ينير كليهما وكما نراه في كل شيء ينمو في هذه
الحياة فالطفل ينمو والحجر ينمو وكل شيء ينمو الا الأحرار
فانها تنقص وتلاشى وتلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة
الله تبديلاً . فمن يغير هذه الاحجام والاقدار الا الله
الى آخره

هكذا قضيت شهراً بين أمان في المطالعة والتفكير
ومجادلة كل من تسمع الفرص بمجادلتهم من رجال الدين علي
اعتر على ما يكون كحجر القمه ذلك الفيلسوف المتعنت (واعني
به رب البيت) فلم ازدد علماً بشيء جديد فضلاً عما كنت
أجده من أكثرهم من قلة الاكثرات بحديثي ومن الفرار
خشية الجدل والمناظرة .

قد يكون اكثر من ذكرت محققاً لان الوصول الى اثبات وجوده تعالى يبرهان يقنع الماديين ومن ثم على شاكتهم لا ينيل وظيفة ولا يوصل الى فائدة دنيوية بحرص عليها . ومنهم من كان يقطع على الحديث وينتهي عن التماهي في مثل هذه المباحث وهو على ثقة من ان كل من يهادى فيها يزيد شكوكه وينتهي امره الى الجحود . ومنهم جماعة كانوا يتهيثون للحاماة فكان الواحد منهم يتكلم كحمام جاعلا همه حسن الالتقاء والتعبير بالفاظ انيقة خالية البرهان في الموضوع

لا اكتم عنك ان الملل اخذ يستولي عليّ اذ لم اهتمد بنفسي او بواسطة غيري على ضالتي . ولا بد ان صاحبي الفيلسوف كلما ابطأت في موعده وتذكرني سخر مني لا سيما انى لم ازره بعد تلك الليلة . وليت شعري ما عساني اجد منقذاً من مأذقي . ولا مفر من زيارة الرجل ولو بعد حين . اساتل نفسي الاعرف له بعد طوول المدة بأنه مصيب في اعتقاده كل الاصابة اذ لم استطع ان اقيم البرهان على فساد اعتقاده بغير ما اورده آنفاً واني مع ذلك لا ازال متمسكاً بعتقدي ام أقرّ له اني جئت تائباً مذعناً لنصحته وارشاده

ضاقَت فلما استحكمت حلقاتها

فرجت وكنت اظنها لا تفرج

فينا استعرض ما في ذاكرتي خطري ان اذهب الى
رجل كنت اعرفه وغاب عني ولم يكن ممن حادثهم في
الموضوع قبلا ولكني أعتقد فيه الذكاء وان كان لا يجزم
بشيء في الوجود فما طرقت معه بحثاً ذات يوم الا ألفيته بين
الشك واليقين . فلم ادري أمؤمن هو ام كافر ولكني أملت ان
يكون حاقداً مستاء من دعوة من ينكرون وجود الله .

ازمعت مقابلة هذا الرجل وان ابتدره بعقيدة ذلك
الفيلسوف العالي في مذهبه عسى ان تثير المفاجأة من نفسه
فينفعل بالرد عليّ والبرهنة على عكس ما اقول .

ذهبت اليه في العداة فوجدته يطالع بمكتبته . فسلمت
عليه وجلست اتبادل معه الحديث عن انقطاعه عني وسرعان
ما حولت الحديث الى الدين والمادة والروح الى آخره . وانا
أستأثر بالعالمية متعظماً عندما اصدعه بما وعينه من عبارات
الفيلسوف الكافر . كنت اتكلم وهو ينظر اليّ من خلال
نظاراته مغمضاً نصف جفنيه نظرات تشف عن الاستخفاف

بكلامي وهذا كل ما ابتغيه وارجو الوصول اليه . ولا شك
انه لم يقطع عليّ الحديث حتى انتهي من كلامي فيأخذ في
الرد عليه . وفعلا ما كدت انهي من حديثي حتى بادرنى قائلا
بصوت وقور

ربما كنت مصيباً في بعض ما تقول ولكنك لو تأملت
معي . . .

ثم شرع يفند اقوالي كلمة كلمة الى ان انى على جميع
دعواي . . .

اصبحت والحمد لله قادراً على كبح جماح فيلسوفي العنيد
والخامه . على رسلك أيها الفيلسوف الغرور المعجب بذكائه
وفصاحته فستنحني صاغراً امام حجتي الدامغة وسينطفئ سراج
دعواك الكاذبة امام شمس الحقيقة الصادقة .

عزمت ألا أناظره الا مطمئناً هادئاً مجتهداً ان يكون
لصوتي شعار العظمة والكبرياء فضلاً عن قوة الحق القاهر حتى
يكون ذلك ابلغ في كمده والخامه

فيئنا انا اسير ذات يوم في الطريق اذ قابلني هذا الرجل
الفيلسوف فوضع يده على كتفي وقال ضاحكاً

— أين كنت يا عزيزي تلك المدة ؟ نسيت وعدك ؟ وألا
فمتى تجيء ؟

— متى شئت واعذرني لتسويني فقد كنت مشغولاً

— هل بحثت ونقبت ؟

هنا اردت ان اظاهر بقلة الاكتراث به فقلت

— كلا لم يسمع لي الوقت بذلك ولكني فكرت قليلا في
حجبتك ويمكنني ان اجيب دعوتك بالعودة الى المناظرة في
اي وقت

— اني مسرور من قولك هذا ويا حبذا لو تزورني يوم الثلاثاء
الساعة الرابعة مساء

— لا مانع انما ارجوك ان تدعو بعض اصحابك لشهود

مناظرتنا ليكونوا حكماً فيما يدور . هنا قهقهه الفيلسوف وقال

— ليس عندي اشهى من ذلك وانك اتزید به مروري .

افترقا . وجاء يوم الثلاثاء الساعة الرابعة والى باب

صاحبنا حرصاً على مواعده الذي كنت اترقبه بشغف فوجدت

بالهو اربعة رجال لا اعرفهم وبمحكم العادة قدمني اليهم وكان

احدهم يحمل عدسة بلور باحدى عينيه (مونكل) لم ارمح

لرؤيته والثاني قد وضع في فمه منبها (ييبا) يضره بأسنانه
على الطريقة الانجليزية وقد شمر مراويله (بنطلونه) الى
ساقيه حتى بدا شعرهما . وهو شاب مسلم رجع حديثاً من
اكسفورد . والثالث معلم على ما يظهر من نظارته ولحيته
المستطيلة . ورابعهم غليظ لحم الوجه احمره بادن مبطان جداً
يخيل لناظره انه يرفع بطنه بآلة داخل ثيابه الضيقة حتى برزت
امامه كالحاية

وكان رب البيت جزلاً مبتهجاً يسم لكل واحد بسمة
خاصة فبعد ان تبادلنا التحية وتناولنا الشاي وداريننا الحديث
قليلاً على حال الجو يومئذ استهل رب البيت كلامه بمقدمة
ادبية قال في نهايتها انه آسف ان يرى رأيه مخالفاً لرأيي وانه
يرضى السادة الحاضرين حكما بيني وبينه وانه لا يعتمد في
مقاله إلا على ما اثبتته العلم الصحيح الذي لا يمارى فيه . . . اما
المؤمنون فقصور السيرية يسهل انقيادهم ثم التفت الي وقال :
— التسمع لي يا عزيزي ان أبين لهؤلاء السادة القصد من
محاورتنا وأبدي لهم آرائي وآراءك باختصار
— اشرح ما تريد من آراءك واترك لي شرح آرائي ولهؤلاء

السادة الحكم بما يرون بعد .

طفق يفيض من آرائه بفصاحتها المعهودة حتى سرد ما كان منه في المناظرة الاولى حرفاً بحرف تقريباً وهو يجاهد ليضعني موضع الضعيف المقهور ثم قال

— تكلم الآن يا عزيزي بما يعنُّ لك

— قبل ان استرسل في الكلام اسمح لي ان ابدي ملاحظة اولية . نحن نتناقش في موضوع هو ما وراء المادة من عدم وجود ولا يخفى ان هذا موضوع فلسفي ولذا ستكون المناقشة فلسفية لا علمية

— كيف ؟ كيف ؟ ماذا تقول ؟

— على رسلك . لا تقاطعني . دعني اتكلم . ومتى انتهيت فقل ما تشاء . نعم ان المناقشة يجب ان تكون فلسفية ما دام الموضوع كذلك . اذاً لا معنى ان نتجادل كيمائياً ما دمنا نتكلم في غير الكيمياء . كما لا يصح ان نتجادل فلسفياً في حل تجربة كيمائية . فما رأيكم ايها السادة ؟

قال بعضهم ! هذا معقول فقلت لصاحبنا

— هل رضيت ؟

— لا أرى مانعاً فإن بغية الفيلسوف هي بغية العالم كلاهما

يبحث وراء الحقيقة على كل حال فهات ما عندك

— اشكرك . ولما كنت فيلسوفاً مؤمناً لم اجد في البراهين

التي قدمتها لي ما ينفي وجود الله . كل براهينك مبنية على

تلك الحقيقة العلمية وهي خلود المادة . وأنا لا اعتقد بصحة

تلك الحقيقة ككل فيلسوف

— ها ! ها ! ما اجل ما تقول . أنتقر العلم كالمخرفين

من الشيوخ . ان المضحك من اعداء العلم انهم يحتقرونه ولا

يأنفون من الانتفاع به . وينكرونه وهم اول اللاجئين اليه .

فالتعارف والتليفون والبخار والنسبارات والترام التي هي من

ثمار العلم في عرفهم لا شيء ومع ذلك لا يستقنون عن

استخدامها . والاطباء عندهم دجالين ما داموا في صحة جيدة .

ولكن متى مرض احدهم يادر الى استدعاء الطبيب . اذا

اصيبت عزيزك من عائلتك بمرض خطر كالدفتيريا مثلاً فما

انت صانع ؟ أتتركه يموت صبراً ام تسرع الى الطبيب ليسعفه

بما يوقف خطر الداء على حياته . وما ظنك بي اذا منعك

الذهاب في تلك الحالة قائلاً ماذا يجدي الطبيب وانت لا

تعتقد صحة علمه . ماذا كنت تقول لي اذ ذاك ؟

— اقول انك لا تريد ان تدعى أنكلم . قلت اننا نتناقش
فلسفياً فلزمك ان تعتبر مناظر ك فيلسوفاً لا يقطع بحقايقك
العلمية . فلماذا لا تترك لي الوقت الكافي لأبرهن لك على
ذلك ؟ قطعت علي حديثي ودخلت في موضوع الطب
والاطباء وجعلت تمثل بمرضى من عائلتي فأطلب القول فيما هو
خارج عن موضوعنا . فأرجوك مرة ثانية ان تدعى أنكلم
حديثي ثم انتقده بعد كما تشاء . فاسمع الآن . بما اني
فيلسوف . لا اصدق بهذه الحقيقة اعني عدم فناء المادة التي
تبنى عليها دعواك .

ان الحقيقة العلمية ليست حقيقة خالدة اي انها قابلة
للتنقض فهي تعتبر صحيحة في نظر العلماء حتى يصلوا الى حقيقة
اخرى تنقضها . فالفيلسوف الذي يرى الحقائق العلمية تتغير
من حين لآخر لا يجعل العلم اساساً لا اعتقاده .

بيان ذلك . ان الكيماويين كانوا يعتقدون زمناً ان
(الآزوت) غاز غير فعال لا يتحد بغازات اخرى . وكانت
تلك حقيقة علمية يقول بها الجميع فماذا اصابها اليوم . اصبحنا

كلنا نعرف الآزوت يتحد مع غازات اخرى بواسطة الافران
الكهربائية ويكون مركبات غازية كثيرة اذن أخطأ العلماء
واستمروا على خطائهم الى ما قبل ايامنا هذه بقليل
ولو كنا سألنا من في الارض جميعاً قبل مجيء (كوبرنيك)
Copernic هل الشمس تشرق وتغرب حقيقة (اي انها
تدور حول الارض) لآجابوك نحن على يقين من ذلك وما
كان يقنهم الا ضلالاً .

وكان العالم يعتقد الى زمن قريب ان النور اي الشعاع
الضوئي يسير في خط مستقيم وان كل شعاع ضوئي مصحوب
بحرارة وان الذرة اي الجزء الذي لا يتجزأ غير متحرك
فقد اثبت العلم اخيراً خلاف ذلك وكان الطبيعيون
يقولون ان الارض محوطة بطبقة من الهواء يبلغ سمكها اثني
عشر كيلومتر تقريباً وما وراء ذلك فراغ . وظل قولهم هذا
حقيقة علمية مدة طويلة ولكنها اليوم نقضت بعد ان أجروا
عدة تجارب بواسطة قباب طيارة اعدت لذلك . وبما وصلوا
اليه من دراسة النيازك والشهب اعترفوا بوجود آثار هوائية على
بعد يتراوح بين ٢٠٠ ٣٠٠ كيلومتر من الارض حتى أصبح

العلماء يشكون كثيراً في وجود الفراغ . تضاربت النتائج وتناقضت الآراء وتعارضت الحقائق فما كان حقيقة بالأمس أصبح اليوم كذباً مخجلاً كأن لم يقم عليه دليل علمي وما يدريك ان ما قالوا عنه اليوم انه حقيقة لا يصير كذباً في الغد وكذلك الحال في التشریح والطب فكل يوم ترى في حقائقها بدلاً ونقضاً . كانوا ينسبون الفكر والأحاساس الى تأثير المجموع العصبي وان الرأس اذا قطعت وفصلت عن الجسم فقدت كل شعور ولكن التجارب اليوم برهنت على عكس ذلك وجعلتنا نعتقد ان للدورة الدموية دخلاً وتأثيراً . فقد أجرى الاستاذ (براون سيكوار) **Brown Sequard** الإنجليزي التجربة الآتية وهي . انه عمداً الى حصان فقطع الشريانين العظيمين اللذين في عنقه وبواسطتهما تتم الدورة الدموية في رأسه وركب في كل منهما الأنبوبة من المطاط (كاوتش) وجاء على الفور بكب فقطع رأسه وفصلها عن جسمه وركب الأنبوبتين في شرياني عنق الكلب المتصلة برأسه بحيث احكم التركيب والاتصال بين جسم الحصان ورأس الكلب وصارت الدورة الدموية تطوف برأس الكلب

فتروى عروقها. وبعد ان فعل كل ذلك وجد ان رأس الكلب
تحس ولم تفقد الشعور كما كان يعتقد علماء التشريح . استدل
الاستاذ على صحة تجربته بأنه بعد ان احكم اتصال رأس
الكلب المفصولة عن جثته بمنق الحصان شاك الكلب في خذه
بأبرة فاكش جلد وجهه وظهر عليه التألم ثم ناداه باسمه فحاول
الالتفات اليه بفتح عينيه فدل ذلك على انه يسمع ويحس وانه
في ذلك عدة تجارب غيرت الحقيقة التي كانت ثابتة في علم
التشريح واصبح العلماء يعتقدون ان للدورة الدموية تأثيراً قوياً
على الحواس والشعور

وكانوا يعتقدون ايضاً ان القلب حساس جداً وانه اذا
جرح ولو خفيفاً أحدث جرحه الموت حالاً . وقد صارت
هذه العقيدة اليوم من المضحكات فان الاستاذ (الكسيس
كاريل) **Alexis Carrel** . يجري في القلب عمليات جراحية
ثم يخطط المكان وتظل الحياة في الجسم وقد يعيش بعد ذلك
طويلاً

وفي الجغرافيا كذلك قد تبدل الحال في الاعتقاد اذا
كانوا يعتقدون قديماً ان الارض مبسوطة اي مسطحة وكان

ذلك الزعم حقيقة علمية الى ان توصل العلماء الى معرفة فساد هذا الزعم واثبتوا انها مستديرة تشبه البرتقالة واوردوا على صحة ذلك ادلة كافية نقضوا بها ما اثبتته سابقوهم واصبحت حقيقة الامس كأن لم يقم على صحتها دليل . استمر القول بان الارض كروية تتسع من الوسط وتنخفض في جهتي القطبين والعالم باجمعه قانع بما تقور عندهم من الادلة حتى جاء (سوس) Scuss العالم النمساوي الكبير في مدينة فيينا فقام يبرهن على ان الارض ليست كروية

— يا لها من فرية ! الارض ليست كروية ؟

— لا تقاطعني يا سيدي في الحديث . ناولني قلم رصاص وقطعة ورق . ان القول بكروية الارض اتضح اخيراً فساداً كما اثبت ذلك الاستاذ «سوس» بالبرهان وكان من وراء اثباته حصول فرض ثالث هو الممول عليه الآن عند العلماء الذين يسمونه فرض سوس الهرمي (١) Hypothèse tétraédrique de Scuss واني شارح لك كيف وصل الاستاذ الى هذه النتيجة

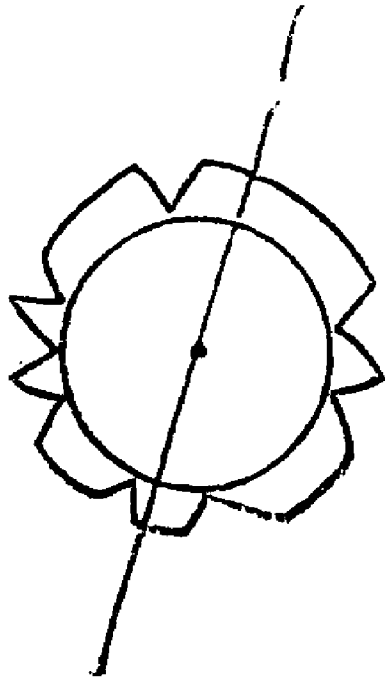
(١) اسميه هرمياً لقرب شكله من شكل الهرم وان كانت اضلاعه مقوسة اذ لم اجد اسماً عربياً أوضح منه في تأدية معناه

ببحثه وكيف برهن أن شكل الأرض أقرب إلى شكل هرم
مفقوس الاضلاع منها إلى شكل كرة أو برتقالة

قال سوس في نفسه أن الأرض في الزمن الأول
كانت كتلة من مادة دبقه ملتصقة تدور حول محورها وبدورانها
حول نفسها اكتسبت شكلاً كروياً

وبتوالي الأزمان برد سطح الأرض فانقبض نحو جوفها
وكان جوفها يبرد أيضاً فتوفرت فيه قابلية الانقباض كذلك.
ثم وقف تقبض سطح الأرض فلم يبق سبيل إليه لضرورة كروية
الأرض لأن البرودة انتشرت على سطحها انتشاراً متساوياً
في جميع أجزائه فأوجدت توازن الضغط في تلك الأجزاء
فكانت النتيجة أن قلب الأرض (الذي كان لا يزال آخذاً
في الانكماش) انفصل عن سطحها كما انفصل لب اللوزة الجاف
عن قشرتها . فقلب الأرض اذن غير متصل أى غير ملتصق
بطبقته الخارجية (سطحها) لأن السطح وقف بعد استدارته
عن الانقباض لتكافؤ الضغط في كل نقطة منه فحدث فراغ
بين القلب والسطح . فلا سبب خارجية كالضغط الجوي

وتعاقب الرياح تجعد وتحدد وجه البسيطة فكانت الأودية
والجبال (١)

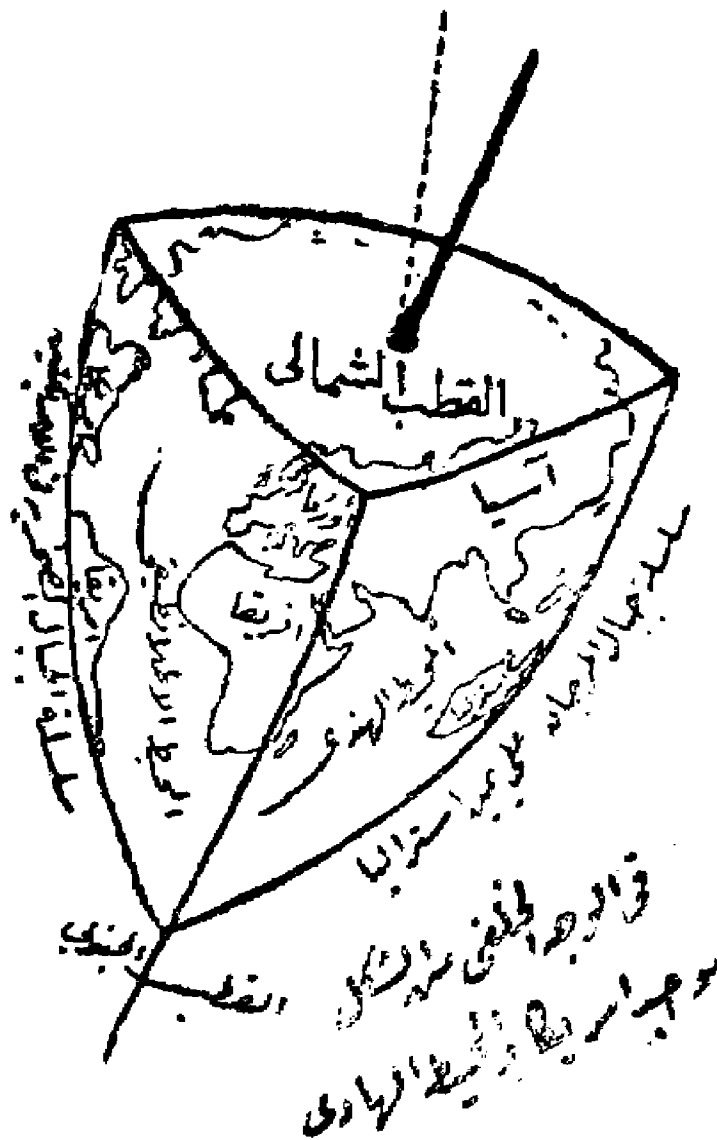


وهذا سأل سوس نفسه فيما اذا
كانت الارض بقيت حافظة
اشكالها الكروي بعد كل هذه
التغيرات فعمد الى امتحان
ذلك بالتجربة عدة مرات فأخذ
كرة جلد داخلها أخرى من
الطاط (فوتبول) Foot-Ball

وملأ التي في الداخل بالماء تماماً ثم افرغ بلطف جزءاً يسيراً
من الماء وطلق يمينه هذه العملية ويفرغ الماء من جهات مختلفة
مقلداً بذلك التغير الذي يحدث في الكرة الارضية من انفصال
سطحها عن جوفها. فاسفرت كل تجاربه عن نتيجة واحدة هي تجعد
وتكسر سطح الكرة الخارجي حتي أخذ شكلاً هندسياً يشبه
الهرم يسمى بالافرنجية **Tétraèdre** كما يظهر في الشكل الآتي

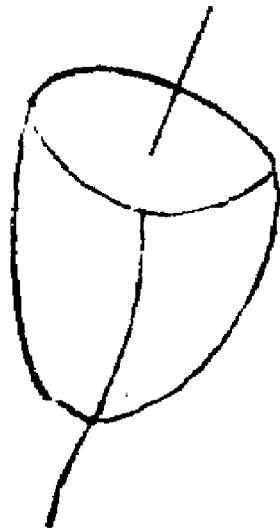
(١) هذا لا يمنع من أن الجبال تنشأ ايضاً من أسباب داخلية كثيرة

وبعد هذه التجارب المدهشة أخذ سوس يسائل نفسه عما إذا
كان شكل الأرض حقيقة يشبه الهرم كما أدت إليه تجاربه
وهذا هو شكل مبالغ فيه قليلا يمثل نظرية سوس



على أنه اعتبر أجزاء الشكل المبسطة بحاراً وأرضاً واعتبر
أركانه جيالاً وفي الواقع يوجد على وجه الأرض ثلاث
سلاسل كبرى من الجبال هي الجبال الصخرية التي تشق

امريكا ومرتفعات الهند ومدغسكر . ثم سلاسل جبال المرجان
الاحمر وهي طويلة جداً في شرق استراليا . فهذه السلاسل
تكوّن اضلاع الهرم وبالتالي كان جزء من امريكا في وجهة
الهرم اليسرى . وكذلك اورغوا وافريقيا على يمين امريكا في
الوجهة نفسها . وكانت اسيا في الوجهة اليمنى وكذا استراليا .
واما الجزء الباقي من امريكا فهو في الوجهة الخلفية (المستترة)
التي تحوى المحيط الهادي . والمحيط الهندي اسفل اسيا
والاطلنطقي بين افريقيا وامريكا وبذلك ترسم الكرة الارضية
امامنا كما هو مبين في الشكل



يطلب سوس من العلماء ان يلاحظوا ان القارات واسعة
من اعلاها ضيقة من اسفلها فأمريكا وافريقيا حتى آسيا فهي

تنتهي جنوباً على شكل سنان أي أنها آخذة اشكالاً مثلثة تقريباً قواعدها في الشمال ورؤوسها في الجنوب وهي دليل على ان شكل الأرض هو كما يقول لان تلك الرؤوس المنتهية بها القارات جنوباً لم تتسع الا لأنها لم تجد في جنوب الأرض محلاً يسمح لها بالاتساع . فاذا ثبتت صحة نظريته يكون القطب الشمالي منبطحاً ايما انبطاح بخلاف القطب الجنوبي الذي ينتهي كالسنان .

مكثت هذه النظرية مزعزعة في نظر العلماء حتى ايدها اكتشاف القطبين فثبتت صحتها نهائياً فقد وجد (امندسن وبيري) **Amundsun & Peary** عند اكتشافهما القطب الشمالي متسعاً عظيماً من الأرض بينما (اسكوت) **Scot** وجد في القطب الجنوبي عدداً كبيراً من الآكام والجبال الشاغمة والبراكين

أرأيت يا سيدي كيف اخطأ العلماء وان الأرض ليست كروية ولو اغضبك على اني لا اقف بك عند هذا الحد وليس بما قلته للآن الا قليلاً من كثير لأريك ان الحقائق العلمية

لا دوام لها بل هي حقائق وقتية لا تلبث ان تنتقض فلا حقد اذن
على فيلسوف لا يعول على حقيقة عليّة تتغير على كرا الأيام ولا
يجعلها كما تفعل انت اساساً لمعتقده . حبجتك على نفي وجود
الاله انه المادة لا تنعدم . فكيف تطمع ان تقنعني بذلك فقط
ويفوتك انهم يشتغلون الآن في كلية (السربون) **Sorbone**
بباريس بالبحث في المادة وان التجارب التي اجروها بواسطة
الراديوم **Radium** جاءت بنتائج عجيبة حتى صار العلماء في شك
مريب .

قلت في ليلة مضت انك واثق تمام الوثوق من صحة
ارائك كما ابديت رأياً . تناديت في صلفك واعجابك بفصاحتك
ونسبتني الى الغباوة فلم تألُ جهداً في توطيد دعواك بأنك على
الحق واني على الباطل . أرايت اليوم انك قد بالغت وتغالييت
ليلتشد واني لست غيباً كما كنت تتصور لتصديقي بالله . ألم
يكن الشك خيراً لك من ان تبرم الحكم بما لا تعلم . ان الشك
ليس دليلاً على الجهل وان العلماء كثيراً ما تعزيرهم الشكوك الا
انت فأنت دائماً تهزم بصحة دعاويك . قال الاستاذ (متاني)
Montaigne الفرنسي الشهير : ان الشك خير وسادة لسترير

عليها ذو الفكر الصحيح والعقل الراجح : ومن رأيه ان الإنسان لا ينبغي له ان يحزم بصحة اي حقيقة كالحقائق التي تدعيها انت ويقول في ذلك : لا ينبغي ان تقول اذا سئلت عن شيء تجهله « لا اعرفه » لان هذا تأكيد لجزمك بعدم المعرفة والاولى ان تظهر الشك والتردد

لم ارد بما قلته لك آنفاً ان ابرهن لك على وجوده تعالى وانما لا ابرهن لك انك مخطيء في زعمك ان في استطاعتك انكار وجود الله

لا اناقشك في امر الروح ولا في العالم الجسماني ولا الروحاني وحسبي ان اشرح لك نظرية الفيلسوف (برجسون) في الحركة وعليك ان تستخلص النتيجة بنفسك

هنري برجسون **Henri Bergson** الذي ليس ينبغي مثلي ولا واثقاً من نفسه ثقة عمياء مثلك سأل جمعاً من العلماء قائلاً هل تعرفون ما الحركة ؟ ان العالم حركة والحياة حركة فأول شيء يجب علينا ان ندرسه هو الحركة . فهل درستوها ايها الاساتذة ؟ قالوا نعم لا سيما في هذا العهد ثم اروه اشرطة واجهزة

(سينماتوغرافية) تمكنهم من الحصول على (٢٠٠) نقلة في الدقيقة الواحدة (١)

فنظر (برجسون) الى (الفلم) Film اي الشريط السينماتوغرافي وقال اين توجد الحركة في هذه الصور الثابتة واردف قائلاً لا سبيل لدراسة الحركة على الشريط لان الحركة عليه هي المسافة التي قطعها الجسم زمناً ما بين سكونين متوالين في صورتين متتاليتين كما لو وضعت ذراعك على مائدة ثم رفعته قليلاً . فليس هو متحركاً في حالة وضعه على المائدة ولا بعد رفعه وإنما الحركة حصلت بين السكونين « لحظة » رفع اليد في تلك الفترة هي الحركة وهذا لا اراه على الشريط

(١) النقلة السينماتوغرافية هي ان تحل صورة محل اخرى على الشريط المسمى « فلماً » Film كما ترى رأي العين . وبيان ذلك ان الشريط السينماتوغرافي شريط يرسم عليه عدد من الصور لكل حركة بطريقة التصوير الفوتوغرافي المعلومة وعليه تشدأ كل حركة الى اجزاء كثيرة متتالية تظهر كما كانت وقت التصوير عند ما يضعون الشريط (الفلم) في الآلة المعدة له وتسير بسرعة امام نور الجهاز فتقع أشعته على الملاة البيضاء حاملة تلك الصور المتتالية بسرعة عيها فتظهر للراي كأنها أجسام متحركة

ارجو ان تكون متيقظاً لدقة ملاحظة هذا الفيلسوف قال
 العلماء (برجسن) انك ترى الحركة ؟ قال نعم فوضعوها
 الشريط في الجهاز ثم اداروه فأجاب . انكم لم تستطيعوا ان
 تروني الحركة الا بعد ان استولدتموها بالجهاز فضلاً عن اني لم
 ار في ذلك كيف تدرسونها ولم استفد شيئاً جديداً . انكم
 تتبعون انفسكم لتنقلوا الى صورة رجل يتحرك او نحوه فما
 حاجتي الى ذلك الا يكفيني ان انظر الى رجل يمشي او ذبابة
 تطير وهل مجرد الرؤية عندهم هي الدراسة . قالوا عفواً ان
 الجهاز يمكننا من دراسة الحركة فيجعل في استطاعتنا ان نراها
 بطيئة او نزيدها سرعة

قال (برجسن) هذا خطأ لان الحركة اما بطيئة واما
 سريعة ولا يجوز لكم ان تبطلوها السريعة او تجعلوها البطيئة سريعة
 لأنكم بعملكم هذا تشاهدون حركات اخرى غير التي تريدون
 درسها فكل حركة زمن محدود تمضي وتذهب بذهابه واسترسل
 في الحديث (برجسن) قائلاً

انكم تحاولون تبين كل شيء وتحسبون انكم تبرهنون
 على صحة كل شيء وانتم لا تستطيعون اثبات شيء من الحركة

التي هي اساس كل شيء عندكم . اقول لكم اني فيلسوف وما
اظمانا معشر الفلاسفة الى الاستقاء من الموارد الثابتة لانا لا
نبحث الا عن الحقائق الخالدة ولا نعول الا عليها ولا اجد
في عالمكم ما اقنع به وتطمئن نفسي اليه فحقائقكم وادلتكم على
شئني جرف هارٍ

أمامي حقيقة لا تمارى ولا يتسرب اليها الشك . تلك
الحقيقة هي اني موجود وحي بدليل حسي ووجداني . نعم اني
أحس وأشعر بوجودي . أؤكد صحة ذلك حتى لو كنت أعمى
وأصم وابكم وأشل فهذا الشعور حق ونكرانه مكابرة في
المحسوس . على ان هذا الشعور نوع من الالهام غير مادي
وهبة من احساسنا الداخلي بالحياة لا تحتاج للعقل
فالمجنون جنوناً عميقاً يشعر بأنه حي والموت وحده هو الذي
يفقده هذا الشعور . ولو بترت ذراعه وهو حي لأحس بالبر
ولكنه لا يحس به لو كان ميتاً

فلك أيها السيد ان تستتج الآن ما تشاء مما سمعت
وماذا عساه ان يكون أصدق من الشعور الفطري والوحي
الباطني . وهل يستطيع عاقل مهما بلغ به التعنت ان ينكر ذلك

الالهام الذي يجعله يشعر بالحياة ؟ والا فما الفائدة من مناقشتنا هذه ؟ . ترى ان ذلك الالهام غير مادي فلماذا لا تكون الروح موجودة كالالهام وكذلك الله سبحانه وتعالى

أظنك لاحظت اني لم أقول في كلامي ان الله موجود . ان الكلام في هذه المواضع ليس من الهنات الهيئات والناس لا يزالون في غياهب الجهالة تأهبون فلم يهتدوا الى كثير من الحقائق الخالدة وغما من ان سيرهم عشرين قرناً في سبيل التمدن اسمع ! اسمع ! ان أقول الناس جهلاً هم المؤمنون لانهم لا يستسلمون الى الغرور ولا يدعون معرفة كل شيء بينما غيرهم يزعمون بادعاء العلم والمعرفة ويتصدون لبيان كل شيء فيقفون ما ليس لهم به علم . والاغرب من أمرهم اجترأوا على انكار وجود الله زاعمين ان العقل أساس اعتقادهم . ويعلم الله مقدار بعدهم عما يقره العقل الصحيح

لدينا الكثير من البراهين وهي وان لم تكن كلها متينة فليس منها الرديء وهي كلها تدعونا الى الاعتقاد والايمان بالله وليس عندنا برهان واحد يدعونا الى الكفر به . ومع ذلك لا نزال نتعاضد عن براهين المؤمنين ويحاول غيرهم ان يخلق من

الوهم برهاناً . فأبي الفريقين أحق بالهزم والسخرية . انكم أيها
الماديون تصمون المؤمنين بأنهم عمي أغيا يصدقون لغير سبب
وهم منكم يضحكون اذ لا يجدون لديكم من الاسباب ما
يدعوكم الى الجحود . فما أشد عنادكم وما أغرب شأنكم أيها
الماديون

اسمع الان نظرية بسكال **Pascal** العالم الفرنسي في
الرهان ولا تسأم السماع فهي نظرية لطيفة مروحة ولا تظن
اني ازعج بك في بحر من النظريات لأردك عن دينك فلم اكن
مباشراً إنما قصدي الوحيد ان ابرهن لك انك انت المخطئ .
لمحاولتك جحود الآله مع انك لست على بينة مما تقول . وما
ثقتك العمياء بنفسك الا غرور وبهتان

قال (بسكال) العالم الطبيعي والمفكر الشهير الذي كان
مؤمناً ان حياتنا الدنيا قصيرة مهما طالت بجانب الحياة الابدية .
فاذا راهنا بحياتنا القصيرة ان الله موجود وقضيناها في عمل
الخير والاستقامة على نحو ما يدين به المؤمنون فعناية هذا الرهان
فيما بعد الموت احد امرين فاما ان يكون الله موجوداً فننجز
بما وعد به المتقين من عباده وننعم الحياة الخالدة في دار السلام

ونحظى بهذا النعيم المقيم وحينئذ نكون قد كسبنا شيئاً متناهياً
في العظم بشيء لا يذكر بجانبه وأما ان يكون الله غير موجود
(وهذا ما لا يطمئن له قلب) فلا نخسر الا حياتنا الدنيا ان
صح ان نسعى ذلك خسارة بالآ لا نحصل على مكافأة على اعمالنا
بعد الموت ولكننا قد نكون قضينا حياتنا في العيش الطيب
والعمل الصالح وتجنبنا فيها الأذى وفعل القبيح ونبدنا كل
ما تحرمه الأديان وينزعج منه كل ضمير حي ونفس انسانية كاملة
انك تعترف ممي ان الديانات ترمي لغاية واحدة هي سعادة
الإنسان الا تراني اسعد حظاً بأيماني بالله من كافر يمجده ؟
اني اعمل الطيبات في حياتي الدنيا واجتنب المنكر والبغي وانا
قريب العين بعيد عن وخز الضمير وقلق الخاطر ومع ذلك لا
اقتطع من الجزاء الطيب الذي يرجوه المؤمنون بعد الموت

بينما انت معذب في هذه الحياة التي تراها هدفاً للردى
وشركاً للآ كدار لا تجد فيها تعزية ولا سلوى عما ينغصك ويكدر
صفوك من صروفها . ينهلع فؤادك في الشدائد والخطوب
ولا ترى ملجأ لتفريج كربك فلا إله ينأجيه ضميرك وتعلل
النفس برحمته ولطفه وتدعوه لكشف عنك ما تعانیه . ثم اذا

فكرت فيما بعد الموت كانت حالك اسوأ وانكد فبعد ان
ينطفئ سراج حياتك لا يكون امامك الا أحد أمرين فاما
الظلام الخالك الابدى كما تعتقد واما ان تلقى الله الذي
تنكره الآن فيدخلك نار جهنم خالداً فيها حيث تجد ما أعده
للكافرين من أنواع التعذيب والتنكيل فما اتعس الحياة عندك
يا عجباً كل العجب كيف تقولون معشر الماديين في التهم
بالمؤمنين ان اساس الدين عندهم الايمان وهو مبنى على
التسليم المطلق

أفليس اساس العلم التسليم ايضاً بتلك التجارب التي
لا تلبث ان يظهر خطأؤها على ان المؤمن مؤمن بناء على ما صح
عنده من البراهين بتدقيق النظر والالهام الفطري . فعلى اي
شيء يستند العالم منكم ؟ أعلى انه يحاول شرح كثير من الظواهر
شرحاً سطحياً ثم هو يعجز عن بيان الأسباب الأولية ؟
كأن يقول ان القوة ازلية لأنه لم يعلم لها مصدراً . ألم
يكن الاعتراف بالمعجز ونسبتها الى الله تعالى اولى من محاولة
شرحها بما لا فائدة فيه ولا يقنع باحث . أليس الاجدر اذا
سئلنا : لم وجدت القوة دائماً وكيف خلقها الله . ان نجيب

بهذه الصراحة . ان ادراكى يقصر عن فهم كنه ذلك
اما قولكم ان المادة لم تخلق لان العلماء عاجزون عن
خلقها وانها لا تنعدم لان العلماء عاجزون عن اعدامها فلا
يستنتج منه منطقياً انها لم تخلق او انها لا تنعدم (١)

(١) ان أقوى اعتراض يتمسّدق به الشبان الاذكياء وقت مماراتهم
فى آيات وجود الاله هو قولهم كيف تخلق المادة من العدم اى كيف
يوجد شيء من لا شيء . وكيف تنعدم هذه الكائنات المحسوسة يوماً
ما . ثم يبنون على اعتراضهم هذا نكران وجود الاله وهم يحسبون
ان ذلك يجعلهم من ذوي اللياقة والذكاء الحاد فيثرون بنشره فى كل
مجمع وناد . ويتناقله عنهم المتفقهون والمتفاحون المولعون بالتقليد
الاعمى وان لم يكونوا من اهل الحق . ان هذا الاعتراض أصبح اليوم
من السخافات المضحكة بعد ان أثبت العلم امكان اعدام المادة فقد
توصل الاستاذ «جستاف لوبون» ببعثه وتجاربه الى ان كل شيء
موجود يتحول الى «الايثر» اى العدم ولا تخلق مادة جديدة . أثبت
ذلك فى كتابه المسمى بتطور المادة *l'évolution de la matière*
وبرهن على صحته بما أجراه من التجارب العديدة على كيفية تطور
المادة من حالة الى حالة الى ان ينتهى أمرها الى «الايثر» وهو ما
نسببه بالعدم

فيسرنا ان نقدم لهؤلاء الشبان الاذكياء أولى الحصافة والفهم
الدقيق ان العلم أثبت اليوم «ان الشيء يصير عدماً» وقد كان هذا
مستحيلاً بالامس أمام قرائحهم المتوقدة وعقولهم الراجحة . ولعل

انك لا تدرك ما للفيظة مؤمن الصغيرة من الالهية الكبرى
والمعاني السامية . ان دعامة حياة المؤمن الأعماد على الله
والرضى بقضائه وقدره . فالمؤمن لا يبالي بالمصائب مهما تعاظمت
ولا يكثر بالخطوب مهما تفاقمت بل يقابلها بصدر رحب
وتمر باسم .

لم أقل ذلك حتى بأدري صاحبي الفيلسوف (وكان من
قبل مستكيناً واجماً يحمر لونه تارة ويصفر أخرى) ظاناً انه
أهتدى لموضع ضعف منى او صادف مقتلاً يقضي على منه
فقال بعد ان قهقه

— ما هذا الهذيان ؟ اني معرض الجذ تقول هذا ؟

أرايت اذا حلقت فوق رأسك طيارة الليلة وانت جالس
بين اهلك وذويك فالقت عليكم قذيفة اهلك من معك الا

عكسه . اى ايجاد المادة من العدم وقتاً ما . لا يعتبر مستحيلاً اليوم في
نظرهم كما هو القياس . ومن أراد الوقوف على صحة ما أقول والاطلاع
على النظرية بأكملها فعليه ان يقرأ الكتاب باللغة الفرنسية . وارجو ان
يوفقني الله قريباً الى تلخيص هذا الكتاب الضخم وابرازه للجمهور
باللغة العربية في حجم رشيق ومع ذلك أقول باخلاص وارتياح انه
ان سبقني الى هذا العمل سابق فله منى جزيل الشكر وعاطر التشاء

انت فقد بقيت بذراع ونفخذ والأخريان مبتودتان فهل كنت
تظل منشرح الصدر باسم الفهم شاكرًا ربك على ما انزل عليك
من نعمه ؟

— ما اشط امثالك عن محجة الصواب اخاطبك على وجه
الأطلاق وانت تمثل لي بالشاذ الغريب ولنفرض مع ذلك
ان ما قلته يحصل لي الديلة انا المؤمن الصادق الأيمان فهل تظن
اني لا استمد التجلد من ايماني على ذلك المصاب او اني لا
اشكر الله على ما اصابني اذ لم اخرج منه في حالة اسوأ بل اني
لأعد نفسي كنوداً اذا لم اتحمله برباطة جأش لأن عائلتي ان
هالكت بذاك المصاب الان او على فراش الموت بعد خمسين
عاماً فسيان. فنهاية كل حي ان يموت وان تنوعت الاسباب
وما الخمسون عاماً الا هباء بجانب الحياة الخالدة والنعيم المقيم
نعم احمد الله واشكره اذ بقيت بعد ذلك حياً اتمتع بالنظر وما لم
افقده من حواسي واطعائي حتى يوافيني أجلي واني الموقن
بعلاقة اهلي في الدار الآخرة وقد فازوا بالكرامة والجزاء العظيم
فيكون لي من ذلك نوع من التأسي والسلوى. ويحك لا اقول
ذلك تلعاباً بك امام السادة الحاضرين الذين ضحكوا من

مثلك الذي ضربت (أنه لقول فصل وما هو بالهزل)
انك لتشهد كما يشاهد غيرك ان المصائب كثيراً ما تحل
بالمؤمنين فلا يزعزع لهم ايمان ولا ينهلع لهم قلب لا سيما
البائسين منهم فما اصبرهم على صروف الحوادث وتقلبات الزمان
تعرفهم بايمانهم يلهجون بحمد الله وتسبيحه في اشد الا زمان
ولهم في ذلك تصرف غريب وشعور موثر يدق عن فهم
الاذكاء فترام يقارنون حالهم بحال من هم اسوأ منهم ومصائبهم
بما هو اعظم منه فيهن عليهم ما هم فيه ويجدون في ذلك ما
يوجب الشكر

هنا تندم وجه صاحبنا الفيلسوف غيظاً حتى كاد الدم
يخرج من عينيه وكان مرتدياً بزة (بدلة) زرقاء وقيصاً
ايض وهذا ما حملني على الظن بأنه تكلف الضغط على اعضائه
ليحمر وجهه فيحاكي بمجموعه الراية الفرنسية فعلى ذلك انتفخت
اوداجه وخاطبني منفعلًا قائلاً

— اسمع . اذا سلنا بوجود الاله فلا بد ان نسلم بما يجب له
من الكمال المطلق . فالله اذن كامل وبكماله يعلم الغيب فيعلم
ما سأعمل . وعلمه هذا لا يجعلني حراً اعمل بغير ما علم وان

عملت ما يناقض علمه فاما ان يكون ذلك تكذيباً له او مخالفاً
لأرادته وكلاهما مستحيل

اذن لا يمكن ان اعمل الا ما سبق به علمه وارادته
فأعمائي مقيدة بعلمه وارادته ومع ذلك يعاقبني على السيئة منها
ألم يكن ذلك ظلماً بيناً

— كلا لا اعد ذلك ظلماً انما هذه مغالطة منك . انت تقول
ان الله كامل . فهذا صحيح . وتعترف معي ان الانسان غير
كامل . فكيف تريد ان يدرك حقيقة صفات الكامل من
ليس بكامل ؟

فيجب عليك اذن ان تعترف بجهلك معنى كمال الله بل
انت تجهل معنى لفظ الكمال .

ان كمال الله لا حد له وصفاته كلها . مطلقة بخلاف الصفات
الإنسانية فالرحمة مثلاً من صفات الله وقد يتصف بها
الإنسان على قدر مواهبه . فهل تتصور ان رحمة الله كرحمة
الإنسان ؟ انك ان تستطيع ان تتصور سعة رحمة الله التي لا
نهاية لها معها اعملت الفكرة لان عقولنا قاصرة محدودة فكيف
تستطيع الأحاطة بما ليس بمحدود .

فسكت هنيهة ثم قال

— هذا صحيح ولكن اذا كانت الله هو الخالق للكائنات
ومما خلقه الأرض فليس في خلقها دليل على احكام
تديره وكل قدرته كما سأريك . انت تعرف ان محور الأرض
ليس رأسياً بل هو مائل بما يكون زاوية حادة قدرها ٢٣
درجة . هذا الميل ينشأ عنه اختلاف طول الليل والنهار
وقصرهما على سطح الأرض كما هو السبب في شدة البرودة
المتناهية في بعض الانحاء مثل سيبيريا بآسيا مما جعل ارضها
غير صالحة للزراعة وشدة الحر في انحاء اخرى كخط الاستواء
فلو كان المحور رأسياً لحصل التوازن بين الصيف والشتاء
واستوى الليل والنهار على جميع انحاء الأرض وكان جميع
سكانها هنا عيشاً مما هم عليه الآن . بل اين احكام تديره في
جعله الماء يغمر اربعة اخماس الأرض وما فائدة هذا المسطح
العظيم من المحيطات ؟ اي حكمة في ذلك ؟ لا أرى الا انه
اراد بذلك ان يضيق علينا سبل الحياة .

— عيبك أيها السيد انك لا تنظر الى الأشياء الا من وجهة
واحدة . تقول ان محور الأرض مائل ومعظمها مغطى بالماء

لدرجة تضائق الانسان وتستنتج من كونها كذلك انها لا تدل
على كمال خالقها واجكام تديره . هذه دعواك . ولكن من أين
لك ان الله خلق الارض لاجل الانسان ؟ ومن أين لك ان
ميل المحور الذي تراه مضيقاً له ليس بضروري لحياة الانسان
وأهم الحيوان التي تسكن البحار ؟ . انك اعترفت ان اربعة
أخماس الارض مغطاة بالماء . أليس من الجائز ان الله حين
خلق الارض علم حاجة أمم البحار الكثيرة بالنسبة لنا فدبر
خلقها على ما يناسب حاجتها ويضمن بقاءها وانت تعلم أننا
لا نشغل الا جزءاً يسيراً من خمس الارض اليابس الذي
يشاركنا فيه كثير من أمم الحيوان المختلفة

وما يظهر لك عيباً ونقصاً في التدبير له في الحقيقة حكمة
بالغة استأثر بعلمها الحكيم الخبير (وما أوتيتم من العلم الا قليلاً)
على أنني لا أفهم معنى من كونك دائماً تنسب كل قص ظاهري
او ما تزعم انه خطأ الى الله تعالى ولا تنسبه لجهلك وقصر
فهمك عن ادراك اسرار حكمته

— اجمالاً . انك تحاول تفهيمي ان الله خلق الارض

للحيوان الاعجم

— ماذا يزعجك ؟ ان كبرياء الانسان يدفعه للظن
دائماً انه اذكي المخلوقات وان الارض لم تخلق الا له وحده
ارجو ألا تؤنبنى لاني خالفتك في رأيك . وقل لي من فضلك
ما الذي حملك على ذلك الرأي . لأن الانسان أوتي قوة
الاختراع فهو يبنى المساكن وينسج الملابس فما ذلك على ما
أرى الا لضعفه والحاجة وحدها هي التي دفعتة الى ذلك بينما
صنوف الحيوان غيره لم تدفعها الضرورة للالتجاء الى الملابس
والمساكن فضلاً عن انها أقدر منا على تحصيل رزقها . تسلك
سبل ربها ذالاً . مطلقة الحرية . وتسبح بحمده بكرة واصيلاً .
وربما كان لها بيان لا نفقهه وعلوم لا نعرفها

نعم يوجد من بين صنوفها ما تشعر بضعفها وتدفعها الحاجة
الى الاختراع ايضاً فتتخذ لها في الاشجار وجدر المنازل وفي
جوف الارض بيوتاً وحجوراً لتأمن فيها كالارب واليربوع
والنملة ونحوها

أيضن الانسان لاختراعه التلغراف والتلفون انه أرقى فطنة من
الهر مثلاً لانه يستطيع ان يكلم آخر على بعدٍ شاسع . وان
الهر لا يستطيع ذلك . هل اتاك نبأ « التليباتي » **Telepaty**

(مواصلة الافكار). يظن العلماء انهم وصلوا الآن الى اكتشاف
خاصية جديدة في مواهبنا هي القدرة على اصال افكار المرء
الى انسان آخر بعيد عنه فيعرفها كما لو سمعها من فمه او قرأها
في خطاب منه . كأن بينهما تلفراف لا سلكي يتبادلان به
الافكار ويعرف أحدهما بهذه الخاصية ما عند الآخر . على
أنها لا توجد في عموم بني الانسان بل في افراد منهم لديهم
استعداد خاص . وقد أجريت عدة تجارب في فرنسا واميركا
والهند أبدت صحتها

يقال ان سيدة من أمرة شريفة باميركا اصابتها نوبة
عصبية فقالت ان ابنها يموت في طريقه الى اميركا . وفي اليوم
التالي لقولها اتضح ان ابنها الذي كان في تلك الساعة على ظهر
السفينة «تيتانيك» مات مع من ماتوا منها غرقاً . ويقول
الباحثون في هذا الفن الطريف ان اخبارها ناشيء من رسالة
فكرية بعثها اليها ولدها وهو على وشك الموت

لست اجزم بصحة ما يقولون بالرغم عن التجارب التي
اجروها كما لا امرض لتفنيد آرائهم . ولكنني أقول اذا
كان في بعض بني الانسان قوة التراسل الروحاني فلم لا يكون

من بنى صنوف الحيوان ما يتمتع بهذه المزية فتغنيه عن اختراع طريق للتراسل وتبادل الأفكار كما اخترع الإنسان حين اضطرته الحاجة . وما يدريك ان قطتك التي خرجت من هنا الساعة في تراسل مع قطة بيتنا لتخبرها انك غضبان حانق على لاني لست على رأيك في كل شيء . واذا اردت المزيد فما عليك الا ان تقرأ كتاباً في الحيوان لتعرف مقدار ما منحها الخالق القدير من المواهب الدالة على إحكام صنعه وبالغ حكمته ولك في النملة والنحلة مثلاً عجيبان . أنظر في الخلية قترى ملكاً منظماً بالغاً حد الاتقان لا تستطيع ان تأتي بمثله . والمتتبع أحوال النحل وسير معيشته يدهش حينما يراه لا يعيش في فوضى بل يحده قد نظم حكومة تقيم منار العدل وتفصل فيما يقع بين افراده من الخصومات

يرى الانسان بعينه ويتدبر بعقله ما يسير عليه بعض أمم الحيوان من عجب النظم وحسن التصرف الذي قد يراه يفوق نظامنا ثم لا يسمح ان يحكم لها بشيء من الذكاء ويستأثر به لنفسه اللهم الا مغالطة ينسب ذلك الى غريزة فيه . فهل ترى أيها السيد ان الغريزة كافية لعمل المنكبوت ما يعمل مما

يحير الالباب . واذا لم تكن قرأت شيئاً عن العناكب فأعمد
الى ما فاتك الآن وقارن ما تقف عليه من اعماله وتصرفاته بما
تستطيع ان تنصرف فيه أنت بذكائك وعلمك . ان العنكب
منى اصطاد صيداً كذبابة او بعوضة او ما أشبه يعرف بالضبط
في أي شريان يلدغه بل في أي موضع من الشريان ليثقل
حركته ويتسنى له اكله على مهل في يومين او أكثر والصيد
لا يفقد الحياة فبعفن ولا يستطيع الخلاص منه . بأي غريزة
يهتدى العنكب للدغ كل حشرة في مكان يختلف عن الاخرى
ولا يخطيء في اصابة هدفه ولا يئو .

ولعمرك أي جراح يستطيع اجراء عملية دقيقة ناجحة
كهذه فهل لا تزال مصراً على ان الانسان مستأثر بالذكاء ؟ او
انه اكل الحيوان ذكاء ؟

وهل تطمع بانفعالك ان تحولني عن رأيي الى رأيك
يخطط بي الغرور الى القول بان الحيوان مجرد من كل ذكاء
وفكر ؟ ولا يوجد فيه سوى غريزة يهتدى بها كيف يعيش
اعمالك تبني رأيك على ان قوة الذكاء راجعة الى كبر المخ فلئن
كان هذا اعتقادك فهو وهم فاسد يدل الحس على بطلانه والا

لنزم ان يكون الفيل والحمار اذكي من القرد والكلب (١) .
فاذا سلمت معي ان الذكاء ووفور العقل لا يتوقفان على كبر المخلوق
وصغره سهل علينا ان نعتبر قوة الذكاء والادراك في كل
اصناف الحيوان بما تاتي به من الأعمال . زد على ذلك اننا نجعل
تماماً حقيقة كثير من الحيوان لاسباباً صغيرة الحجم منها . تظن ان
الانسان اكل الحيوان عقلاً وذكاء مع جهلك صنوف الحيوان
الأخرى وان رأيت من أعمال بعضها ما يدهشك وتمجز عن
محاكاته . ربما يكون كذلك الانسان الكامل ولكن اين هو
الانسان الكامل مع انه لا يتم كماله الا بالوقوف على طبائع
الحيوان اجمع .

(١) روت احدى الجرائد الفرنسية الطبية المسماه **Aesculape**
منذ زمن ان رجلاً ألمانياً عنى بتربية كلب وتعاليمه حتى كان منه انه
ادرك معاني القراءة والكتابة ويبدى ذكاء بدقات معدودة يدقها بيده
رمزاً لكل حرف ويتبادل الحديث بذلك مع سيده وسيدته وكان من
امره انه يجري عمليات ضرب وقسمة وجزر وشاعت هذه الحادثة فأمر
الاطباء من سائر الارحاء مكانها لمشاهدة ما يعمله ذلك الكلب فبلغ
منهم الدهش مبلغه ومن اراد تمام لوقوف على الرواية هذا الكلب
بأكملها فليطلب ذلك الي

هذا وقد صار صاحبنا الفيلسوف في حالة يرثى لها لاسيما
في كفا التفث الى الحاضرين رأي انظارهم متجهة اليه ساخرة
منه فأراد ان يتخلص من المناظرة دون ان يعترف بالغلبة
والخذلان فقال

— انك لفصيح لبق لذا تراني استمع اليك بلذة وانبساط
فلنعد الى ما كنا فيه الا تظن ان الجاحد اكثر متعة بهذه
الحياة من المؤمن لأنه يتمتع النفس بما تشتهي ولا يعتبر الحدود
والتحريم الا اصطلاحات اتفق عليها فلا يصدده عن التمتع
بشهواته تحريم ولا يردعه عن فعل منكر وعيد الا ترى ان فيما
حرّمته الأديان ما يدعو كثيراً من المؤمنين وغيرهم الى ارتكابها
لان تحريم امر يوجد لذة في النفوس تميل بها اليه وشهوة تدعو
الى انتهاكه ولقد صدق الله تعالى (أحب شيء الى الانسان
ما منع) ولو عمل الناس كلهم صالحاً واستقاموا كما تأمر الأديان
لأنتقطعت اسباب الرزق عن الكثيرين كالتقاضي والمحامي
والشرطي وغيرهم

اراك يا عزيزي نخوم حول الموضوع ولا تخلص الى
نتيجة ويلوح لي انك الآن تتعاشى المناظرة لكلا تعترف

بالعجز والتسليم

— اتظن اني ؟

— مه اسمع لي ان اتكلم هنيهة لأجيب على سؤالك تقول
ان التحريم وحده مرغّب في ارتكاب المحرمات وجاذب اليها . يجوز
انك مصيب ولكن لسنا في شيء من ذلك الآن على أني
اقول لك ان الجاحد لا يجد لذة في ارتكاب تلك المحرمات
بأعترافك السابق لأن اللذة في التحريم نفسه وقد انعدم
التحريم في عرف الجاحدين

وبقي ان تلك اللذة موجودة للمؤمن لو سولت له نفسه
اقتراف ما حرم عليه فأبي الرجلين اسعد حالا واوفر حظا في
التمتع بملاذ الحياة ؟ وانت ترى ان المؤمن ان عمل صالحا يشعر
بلذة وارتياح اذ امكنه ان يكبح جماح نفسه عن الشهوات
البهيمية والترقي بها الى الكمالات الروحانية وان هو اطاعها
فيما تنزع اليه من الشهوات تضاعفت عنده اللذة التي يتمتع
بها الجاحد في زعمك

هنا ارتبك الفيلسوف المادى وتقطعت به الاسباب والحجج
وحاول ان يخفي من خزيه بستار المداعبة والمجون فقال

— اي نعم . سعيد المؤمن في حياته ممتع ببلذاته كما تقول
بلسانك مع اعتقادك اني انا الجاحد امصرح في اللذات
والشهوات مطمئناً لا يزعجني وازع دين ولا يصدع وجداني
نازع خوف من عقاب فاعرف كيف اقضى اوقاتي بسرور
وغبطة واغتم الفرصة متى سنحت بانسراح وابتهاج . ان قلبك
يعترف معي بذلك وان بالفت في انكاره بلسانك وانت المؤمن
المكبل بقيود الدين واوامره ونواهيه يتسلط على وجدانك في
كل ساعة من ساعات السرور آلاف الحواطر فلا تجد لذة
خالصة ولا تنعم نفسك بما تشتهيهِ أليس ذلك حقاً ؟ فلتنهأ
بايمانك وتمتع بما تعانیه في كبح جماح نفسك وترويضها على
الفضائل ؟

(وهنا اورد مناظري امثال للمغازي والفجور لم
استحسن ذكرها) قلت :

— كم انت غريب في افكارك وتصوراتك كما انك غريب
في اسلوب مجادلتيك تمزج الجد بالهزل ولا تقف عند حد مخافة
الوصول الى متوج يرغمك على التسليم لمناظرك فاذا سمعت جد
الحديث تبلبل لسانك واضطربت عباراتك وعجزت عن نقض

ما أقيم من البراهين وإذا لاح لك ما تتخذه دخلا للهزل تدفق
لسانك بقول الهزؤ والمجوب والتصورات الشاذة المبنية على
الظن الذي بجمعك تهمني بأنني أقول بلساني ما ليس في قلبي .
فمن اين لك ذلك ؟ وهل هذا اسلوب منطقي جديد في المجادلة
ما فائدة تفاسحك في ايراد عبارتك الأخيرة وأي أهمية لها في
اثبات وجود الاله الذي هو اساس موضوعنا ؟ ؟ ؟ . .

ألا ترى انها لا تبلغ ان تكون مسألة ثانوية في الموضوع
بل تكاد تكون خارجة عنه ؟ وكنت اود لو اجهدت نفسك
وحددت شبة فصاحتك وبلاغتك في جد القول وجوهه
الموضوع . وهل تظن ان كل ما يلذك وتشتيه يجب أن يلذ
كل انسان ويشتهيه ؟ أو أن الحظ والنعم فيما يفعله الجاحد
وحده ؟ وهل تطمع ان تقنعني بذلك ؟

ثق اني لا اجد ادنى لذة في التسمم بالمسكرات وتدخين
الحشيش وولوج الحانات والا خوار اثناء الليل واطراف النهار
ولا اشتهي الرقاد في فراش غير طاهر بطرقه كل من يريد
ولا يروق في نظري التردد على مواخير الدعارة كما تفعل انت
ومن أترفهم النعمة من ابناء الذوات المتطرفين في المدنية

الحديث ذوى الكياسة والذكاء المتوقد فنهاية ذلك اما الجنون
واما المرض والفقر واما الضعف المناهى العائق عن كل عمل
يطلب من رجل . ثق اني لا اجد لذة في هتك عرض خلصة
على احتجاب عين الرقباء ولا اشتهي اعمال الحيلة على افساد
اخلاق نفس طاهرة فمثل هذه الأعمال لا ينغرن منها وازع
الدين فقط بل ان نفس تمجها وطباعي تأبأها لمخالفتها الانسانية
والذوق السليم . فضلا عن ان التماذي فيها يذهب بكل لذة
ومشهوة تعزى اليها لأنها تصبح امرأ مألوفاً . واني لأعرف
كثيراً من المنغمسين في الملاهي واللذات المنهمكين في اتباع
الشهوات يترفون انهم اصبحوا لا يشعرون بلذة في الحياة وقد
علام السأم واستولت عليهم الكآبة يعترهم الضجر والانفعال
لاذنى شيء . يمرض ميولهم ولكنهم في غوايتهم يعمهون ولا
يزالون كذلك حتى يأتهم اليقين . طال بنا الحديث وصرفتنا
المناظرة عن الالتفات الى الوقت واظن ان ما أتينا به اليوم
كاف على ان نعود الى البحث مرة أخرى عندما تسمع لنا
الظروف . فائذن لي الآن بالانصراف واعذرني اذ ألماتني
المناظرة لمخالفتك في جميع آرائك فهذا لا يمنعني من احترام

افكارك بالرغم من تمسكي بالايان الذي يشترك معي فيه السواد
الا عظم من الناس عظمهم وحقيقتهم عالمهم وجاهلهم ونحن
قائمون بما لدينا من الأدلة والبراهين على وجود الله اذ لم يقيم
للآن برهان صحيح ينفي وجوده وبعبارة أوضح أقول لك اني
لست متعصبا بل اني مستعد أن أخضع لك في تغيير معتقدي
ان امكنت ان تقيم برهانا ناصعا على صحة دعواك . لا كما
فعلت اللبلة من اطالة القول بلا جدوى ولا منتج . أكرر لك
قولي اني ثابت على ايماني . فبرهن لي على فساد حسي وشعوري
يبرهان يقبله العقل أصير ماديا مثلك

— قد سرني حديثك كثيراً . والآن أبوح لك بالحقيقة .
انا لست ماديا . انما تظاهرت بذلك لأعجم عودك واقف على
مقدار ثباتك على الايمان ولا تئين مما اذا كنت من اولئك
الذين ينقادون اتقياداً أعمى بلا نظر ولا استدلال ويتأثرون
بالخزعبلات وتجاوز عليهم المغالطة . فأعجبني منك ذكاؤك
وفطنتك واؤكد لك اني مثلك مؤمن بالله :

حينئذ لاحظ الحاضرون أن هذه خديعة أخرى من
صاحبنا أراد أن يستتر بها كي لا يقر لي بالغلبة والظهور عليه

فأدعى ان ما قاله لم يكن الا من قبيل الخزعبلات . ولكن لم
يضحك منه أحد الحاضرين حتى لا يزداد خجلاً . اما انا
ففاغظني منه مراوغته واحتياله في الهرب بعد ما كان من صلفه
وغلوه في تمجيلي وضحك الحاضرين عندما كان يأتي بشاذ
الأمثلة . لم يرضني منه ان يشعر بالضعف ويخفيه فأزمت ان
اضايقه حتى يبدو ضعفه ولا يستطيع اخفائه فقلت له

— لا ! لا ! أمؤمن انت ؟ لقد كان يخطر لي انك كذلك
احياناً . لأن المادى الصميم لا بد ان يكون اكثر منك جدلاً
واشد شكيمه . كنت أفكر في ذلك كلما ظهر لي ان سفسطتك
ومغالطاتك لم تكن من النوع الجيد
— كيف تقول ان ؟

— لا تحاول الدفاع عن نظرية ساقطة لا قوام لها الآن بعد
اعترافك انك مؤمن . ان نظريتك سهلة التنفيذ اما المغالطة
الجيدة فهي التي يتجلى للمقل فسادها ويصعب تنفيذها
فلم يطق صبراً عن الكلام وقاطعتني قائلاً

— اسمح لي يا عزيزي . . . كل مغالطة سهلة التنفيذ
— اتظن ؟

— بل انا واثق

— اذن ارجوك ان تبين لي كيف ؟ ولماذا ؟ كانت مغالطة

حمار (بوريدون) فاسدة *L'âne de Buridon*

— لا اعرفها

— انها تلخص فيما يأتي . يقول ان جاذبية الأشياء للإنسان هي بنسبة حاجتها اليها والمسافة التي تفصله عنها . فلو فرضنا اني جوعان فان قوة الجذب الى قطعة خبز قريبة مني اكثر منها الى قطعة بعيدة . واذا أخبرتنى عن قطعة خبز جيد في حجرة قريبة مني وانا جوعان ايضاً فأني اشعر بجاذبية شديدة اليها اما اذا أخبرتنى عن قطعة خبز في اليابان فلا أشعر في هذه الحالة بأدنى جاذبية اليها ويستنتج من ذلك انه اذا تساوت قوة الجذب في شيئين عند حيوان من جهتين متقابلتين وتوسط بينهما الحيوان فلما نال شيئاً في مكانه ويقول (بوريدون) اذا وضعنا على يمين حمار جائع مقداراً من التبن على مسافة ما فإنه يجذب الحمار لياكله فاذا أتينا بمقدار من التبن مكافئ للمقدار الاول أو من نوعه ووضعناه يسار الحمار على مسافة تساوي بعد التبن من الجهة اليمنى فان الجذب من الجهتين يكون متساوياً عند الحمار

فلا يتحرك من مكانه

ويدعى بوريدون اننا لا نحصل على غير هذه النتيجة
اذا امكنا اجراء هذه التجربة بالدقة

ومع اننا كلنا نعرف جيداً ونشعر بفساد دعواء . وان
الحمار الجائع لا يتردد حينئذ في الذهاب الى احد الجهتين
لما كل مقدار التبن اولا ثم يذهب الى الجهة الاخرى فيا كل
الثاني . ولكن كيف نستطيع تفنيد هذه المغالطة ؟

— ها اها اها اي صعوبة تترامى لك في ذلك ؟

ان الامر هين بسيط وما علينا الا ان نعيد هذه التجربة
عشر مرات او مائة مرة والحمار في كل واحدة يتدبىء بأكل
احد العدلين ويشئ بالآخر وهو لا يعبأ بالكم ولا بالمسافة وهذا
ما يثبت فساد هذه المغالطة

— اسمح لي أن أضحك مثلك من هذا الجواب . ان
(بوريدون) ادعى مما تظن فانه يجيبك في هذه الحالة بان
تجربتك لا تدل على بطلان دعواه بل على فساد تجربتك
قائلا انك لم تضبط قياس بعددي الكيتين من الحمار بالمليمتر
ويكفى مليمتر واحد يزيد او ينقص في احدهما لتكون احدى

الكميتين اقرب الى الحمار من الأخرى . او يقول ان فساد
تجربتك ربما جاء من ان الكميتين غير متساويتين في الحجم
فيكون جذب الكبرى منها اقوى من الصغرى او يقول ربما
كانت احدهما اروح في انف الحمار فتختلف قوة الجذب
فيها فلا يكون في تجاربك ما يدل على فساد نظريته

ويمكنه ان يقول اذا كنت متحققاً من تساوى المسافتين
والكميتين ورائحتها فهل انت متحقق ايضاً من ان عيني الحمار
الذي تجري عليه التجربة متساويتان في قوة النظر فلم يرا احدى
الكميتين اوضح او اكبر من الاخرى فتكون اقوى في
جذبه اليها؟؟ .

اذا تحققت من كل ذلك بفرض امكانه فمن اين لك ان
حاسة الشم متساوية في خيشومي الحمار فلم ترجح احدهما
الأخرى فكانت سببا في تحركه الى الجهة التي استجود تبها .
وبالاختصار يقول (بوريدون) انه لو تيسر لنا اجراء التجربة
بدقة تامة فلا يتحرك الحمار البتة

وبما اننا لا نستطيع استيفاء شروطه من كل الوجوه
فسوف تظل نظريته صحيحة والذنب لنا لا لنا غير اكفاء

لاجراء العملية كما يريد

فهل ان استطعت الى تفنيد هذه المغالطة بعد ان اوقفتك
على اوجه الصعوبة فيها

قلت لك اننا لا نشعر بفسادها فقط بل انا واثقون من
ذلك ولا قدره لنا على دحضها فهي ولا شك اقوى من
مغالطتك في انكار وجود الآله معتمداً على صحة الحقائق العلمية
وكان الفيلسوف يسمع ويتسم بتكافؤ ابتسامات تشف
عما يتأجج بين جنبيه من الفيظ والكمد وكان الحاضرون
يسمعون ولا ينبسون ينت شفة ولكن الأرتياح يبدو عليهم
الا واحداً هو الشاب المسلم المتجلز فكان كأنه يمتعض من
افكاره وقد اكون معذوراً اذ لم ارضه فان ارضاء الجميع
غاية لا تدرك . نهض صاحب البيت فنهضنا على اثره نريد
الانصراف فاستبقانا ليقدم لنا شيئاً من المرطبات . وذهب
بهيه فاقترب مني لابس الطربوش وظننته يريد الاعتراض على
شيء مما قلته او يوقنى على آرائه في الموضوع ولكنه قال

— ان الرطوبة منتشرة بكثرة في الجو هذا المساء

— نعم الرطوبة شديدة الليلة

— لا لذة في الرياضة البدنية ما دامت حال الجو كذلك

— نعم يلزم لتلك الرياضة الطقس البارد

— لا ارى موافقاً للرياضة احسن من بلاد الانكليز

ثم طفق يحدثني عن انواع الرياضة البدنية على انه لا يعرف منها الا لعب الاكر التي يتلقونها بالصولجان ذي الشبكة (التنس) ثم قال

— ان الوسيلة الوحيدة لسعادة المرء في الحياة هي التمتع بصحة جيدة فبدونها لا تكون للحياة قيمة . انظر الى رجل معتل المعدة فتراه لا يهنأ له عيش ولا يجد لذة في شيء فهو تعيس طول حياته .

فبسمت لقوله فتشجع على الاستمرار في الحديث وقال
— واحسن طريقة لحفظ الصحة هي الاعتناء بالرياضة البدنية والاصطبار عليها كما يفعل الانكليز . فان التنس من اشد الألعاب وهو مقوى للبدنية

وما زال بي يطيل الشرح والأيضاح ليفهمني ان لا حياة بدون تنس ولا تنس بدون حياة ثم نظر اليّ نظرة من يكبر نفسه وقال

— يظهر أنك تلعب التنس قليلاً

— نعم

— اما انا فأجيد لعبه لأنني لعبته ثلاث سنين متوالية في انكلترا

وهل تلعب التنس من زمن ؟

— كلا من عشر سنين فقط

والظاهر ان جوابي لم يرق لديه فتركني وذهبت امام نافذة استنشق الهواء فلحقني رجل كهل من المراقبين لنا فمسح يده على كتفي فنظرت اليها فوجدتها محزنة وخلت ان في قدرة هذا الرجل ان يترك الماء من بين يديه حبراً اذ كن لو غسلها . قال لي

— احسنت اجدت ايها الشاب . (دي شيء جمال جمال آوى) لم اقدم لك التهئة امام رب البيت خشية ان اجرح احساسه فهو العالم الذي لا يسبق له غبار وما رأيتهُ أخفم في غير هذا المجلس . فما اطول باعك في علم اللاهوت وانا الاخر ممن يشتغلون بهذا العلم ولكنك انت مبرز فيه فكم انا معجب وكم طربت بأرائك

فحدثني نفسي ان الرجل يمدحني توطئه لأطراء نفسه

وهذا ما حصل فعلاً فإنه ما لبث ان قال
— تراني الآن أصبحت شيخاً ولقد كان لي ابان شبابي مواقف
مشهودة في المناظرات لم يستطع احد مباراتي فيها واليوم لا قدرة
لي على الكلام والجدل مليا ولذا اكتفى بالاصغاء لمن يتناظرون
واحيطك علماً اني شغوف بمطالعة الكتب الفلسفية لا اطيق
تركها يوماً كاملاً وربما عن لي يوماً ان اضع كتاباً لا مثيل له
في علم اللاهوت لان الآلهيات فوق كل علم في الوجود
فالاشتغال بها اولى من الاشتغال بالاديات والتاريخ
والرياضيات وغير ذلك وما حياة الانسان في الدنيا الا طريق
الى الحياة الأبدية فكيف يقضيها دون ان يفكر في وجود
المخلق وخلود الروح والتقرب من الله سبحانه وتعالى الذي
أعيش بجواره في دار كرامته بعد هذه الحياة القصيرة . فلذلك
لا ارى خيراً لي ان افكر في شيء غير الله ولا أدع هذه الحياة
تنقضي عبثاً في الاشتغال بالامور الفانية
ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وكل نعيم لا محالة زائل

واستمر مدة يكلمني مبرهننا . على ذكائه ورجحان عقله

وسلاح مذهبه وما سوى ذلك فأمر تافه لا يستدبه
لا شك أني كنت اسمع حديثه مبتسما وما زال يطري
نفسه حتى قنع بأنني أحطت بكل ما أراد أن اعلمه منه ولكنه
أراد أن يتحقق من موافقتي إياه فسألني
— ما رأيك فيما سمعت ؟

— أني أوافقك تمام الموافقة فأريك هو الرأي ولا ينبغي
للإنسان أن يهتم بالاشتغال بشيء أكثر من اهتمامه بأمر آخرته
— أو تفعل أنت ذلك من مدة ؟

— نعم

فسر صاحبي جداً من جوانبي وبالغ في مدحي لاتجأني
نحو الآخرة من مدة قصيرة وتركني أفكر في حالته وما عساني
أن أكيله له من عبارات المدح وما يستحقه من الثناء لاشتغاله
بأمر الآخرة ستين عاماً

يا الهي لا يخلو امرؤ من عيب ولكن قلما يرى الإنسان عيب
نفسه فهو دائماً يرى القذى في عين أخيه ولا يراه في عينه
لم يكذب فارقتي هذا الرجل حتى أقبل عليّ رجل آخر
(كان كأنه يسمع ما دار بيننا) فأشار إليه قائلاً

— لقد ضايقتك بلا ريب هذا الرجل بثرثرته في نظريات الدين وما يتعلق بأمور الآخرة بعبارات لا يتغير لفظها كأنما حنطها عن ظهر قلب ولا ينفك يكررها كلما سنحت له الفرصة في مجلس ولكن لا بأس بالرجل فهو خفيف الروح مسلّ

— نعم هو خفيف الروح

وسرعان ما سألني عما حببنا الجديد قائلاً

— ما رأيك في الحرب ؟

— ؟ ؟

— اظن ان ما لدينا من الاخبار عنها غير كافى

— يجوز

واستمر يحدثني عن ولوعه بمطالعة الجرائد الافرنجية والوقوف على الاخبار ومتابعة السياسة ويوضح لي ضرورة الاشتغال بها ومذهبه في استقاء الاخبار والاستنتاج مما يقرؤه وان من يتصفح الجرائد اليومية ويتابع ما جريات السياسة فلا حظ له من الحياة ولما رأى منى عدم مجاراته في ميدان السياسة وانى لم اناقشه في شيء مما يقول رحل عنى بسلام

وغاية ما كان يرمي اليه انه اراد ان يفهمنى ان من لم
يهتم بالسياسة اهتمامه بها فليس برجل مفكر وانه هو من الذين
يعرفون كيف يستفيدون من قراءة الجرائد بعد ان انتقد العالم
الالهى من الانتقاد ورماء بالمباودة

ومن حسن الحظ ان العالم لا يخلو من مثل هؤلاء الناس
الذين يضحكون ويسخرون من غيرهم ويفوتهم انهم موضع
ضحك الغير وسخريتهم ولولا امثال هؤلاء لكانت العالم ساذج ممل
بعد ذلك استاذنت رب البيت وعدت الى دارى حيث
وجدت اخواتى الصغيرات يحطن بكبراهن التى كانت تقرأ
عليهن قصة قصيرة ومؤداها ان عملياً نزل بارض اقزام واراد
البطش بهم ولكنهم عرفوا كيف يتقون اذاه ويخلصون منه
بان ملقوه وداهنوه واطهروا له منتهى الخضوع والطاعة فاغترف
بفعلهم واعتمد على قوته ونام آمناً ملء عينيه فتسلقوا جسمه
العظيم حتى وصلوا الى عنقه وذبحوه

فهزمت اخواتى لسماع تلك القصة طويلاً حتى استلقى
بعضهن فأحدث ذلك في نفسى سروراً عظيماً ولذة لم أجدها
في سماع اصحابنا الذين جمعنى واياهم دار الفيلسوف

ثم الجزء الاول ويليه الثاني قريباً وأوله « الانسان »
تتيه = وقع بعض خطأ مطبعي بسيط نشأ عنه تحريف
لا يهرب عن فطنة القاري الاهتداء الى صوابه ولكنه قليل فلم
نر داعياً لوضع صحيفة للخطأ والصواب . انما الذي نأمل
ملاحظته الانحراف الذي طرأ على شكل الارض بفرض
« سوس » فليلاحظ ان محوره مائل عن الخط العمودي بزاوية
قدرها ٢٣ درجة



الانسان

اليوم الأحد هذا يوم البطالة فأين اذهب وقد غصت
الطرق والمتزهات بالعمال والموظفين الذين ينتظرونه بعد شغل
طول الأسبوع ليقضوه في الرياضة وترويح النفس واجتلاء
دواعي السرور وقد لبسوا لذلك الجديد والمدخر لمثل هذا اليوم
واكثرهم لم يعتد شد رباط الرقبه ولا لبس الياقات المرتفعة
المنشأة فتراهم ضبقي الصدر يتنفسون الصعداء يكادون يختنقون
من ضغط الملابس على رئاتهم وهم يحاذرون لدى جلوسهم
ومشيمهم ألا تملوث ثيابهم بشيء من التراب ونحوه . يراهم
الانسان في هذا اليوم قد انتشروا كالجراد إبان هجومه فلا
يخلو منهم طريق ولا حديقة عمومية ولا مالهى ولا ملعب حتى
ليراهم غير المتبرجين قد اخذوا عليهم عظام البحر الذي اعتادا
ان يستنشقوا الهواء فيه سداً عن نفوذ غشاوة الراحة فلا يعرفون
كيف يسرون انفسهم ولا يتركون هوسهم دون ان
يكدروه .

عجيب ان اشعر بمثل هذا الضجر من مزاحمة هؤلاء ومن
أين لي هذا الشعور ؟ من أنا ومن هؤلاء . لعل ذلك علق بنفسي
لكثرة ما أسمع من المنتطسين من ابناء الذوات والأشراف
الذين لا يرون وجوداً لغيرهم ولا يستحق سواهم في نظرهم ان
يتمتع بزينة الحياة والطيبات من الرزق ولا أن يزاحمهم في شيء
من كل ما من شأنه ان يروح النفس من عناء الشغل ويزيل عنها
القلق والألقاض ؟ . . ان صح ذلك ولا أخاله الا صحيحاً فهو
نتيجة معاشر أولئك الذين فقتهم الأبهة والترف واكبار
الناس لهم فلا يطيب لهم الحديث الا عن ملابسهم ومراكبهم
وخدمهم وحشمهم وحظوظهم النفسية ولذاتهم الخصوصية
فيربؤون بأنفسهم ان يخالطوا الجمهور في مجتمعاتهم ايام
الأعياد والعطلة العمومية .

لله الأمر من قبل ومن بعد ما دامت العدوى قد
استأصلت من نفسي فاصبحت على مذهب أولئك العلية
من القوم .

قصدت صديقاً لي اعرف انه يظل يوم الاحد في داره
اضطراباً لاستقبال اصدقائه الذين اعتادوا زيارته في هذا اليوم

علي أصادفه على انفراد وقد تخلف الاصدقاء عن زيارته
فأخرج معه للتريض لانه ممن لا يتهيبون الزحام ولا يتحاشون
مخالطة العامة

خاب فآلي اذ قصدت داره ودخلت حجرة الاستقبال
دون ان أخبره بقدومي فوجدتها مكتظة بالرفاق والأخوان
ممن اعرفهم الا اثنين لم ارهما قبل هذا اليوم

ووجدت سالماً (هو احد اصدقائنا الظرفاء) يتكلم مع
احد الاثنين عن ايام المدرسة بسويسرا ويصف له حياته
فيها فيقول :

— الحق اني آسف على ذهاب تلك الايام الهنيئة التي قضيتها
بالمدرسة وقد فرحت لما سمعت انك ذاهب اليها وستسر من
كل شيء هناك . ان الجد رائد القوم في عملهم بيد أنهم يخرجون
غالباً للتنزه ومشاهدة جمال الطبيعة فوق الجبال المنتشرة في
أرجائها التي قل ان يحاكيها جبال أخرى بهجة ورواء لما
استأثرت به من بديع المناظر ومختلف الألوان والأعشاب
وبستان المدرسة فسيح جداً منظم للغابة

— ما رأيك في معلمها ؟

— انهم على معرفة ودراية تامة بما يُدرّسون ذوو اخلاق مرضية الا أستاذ الفلاسفة فإنه كالمجنون وكثيراً ما يحدث نفسه بصوت يسمع

— وما رأيك في معلم الرياضة ؟

— انه معلم كفاء ضليع في الرياضيات غزير المادة مهل الشرح وواضح الأسلوب والبيان هاديء الطبع لا يفعل ولا يتهور لهفوات التلاميذ ولا يهتم ولا يرتبك بأي زائر عظيم كان او حقيراً فيستوي عنده ناظر المعارف وناظر المدرسة وكذلك معلم الانكليزية ماهر في حرفته لا تغار حصه يؤديها من جديد طريف

اما معلم الترجمة فهو شاب خفيف الروح جداً كثير الحركة والنشاط وقد سمعت احد تلاميذه وصفه في معرض المجنون قائلاً (انه في تحركه وانتقاله اثناء الدرس يشبه طفلاً صغيراً قد حصر بالبول وتعرى عليه خلع سراويله فهو لذلك لا ينفك يرفع رجلاً ويضع اخره على الارض بسرعة واضطراب) والحق ان الرجل عصبي المزاج ولكنه شغول حتى انه لينساب بالشرح قبل ان يدخل حجرة التدريس بصوت

جهوري مربع وحدة توقظ من عساه ان تاخذه سنة . ولا
يستقر في موضع من الحجرة طول الدرس . وبذلك الكيفية يملئ
الدروس وهو مع ذلك لطيف الممامة لتلاميذه فلا يشتم ولا يوبخ
بالفاظ جارحة كما يفعل بعض المعلمين كما أنه كثير البشاشة
والمباعدة . ومن عاداته ان يتهجى الالفاظ السهلة ويترك الصعبة .
واذكر انه جاءنا يوماً بدل استاذ غائب فقص علينا حكاية
بأسلوب حسن مروح جعلنا نستغرق في الضحك ومؤداها انه
تعرف في (بار) أمس بشاب اسمه شبيب فقال شبيب شين
كاف ي ب وان شكبيا سخر منه بأنه يعبد الله ويحرص على
تأدية الصلاة المفروضة في وقتها معنى مفروضة يا افنديه
انه يتحتم فعلها وتركها معصية كبيرة تدخل النار مفروضة ميم .
ف . راء . واو . ضاد . هاء يعني واجبة

واستمر حتى أتم حكايته بهذا الاسلوب ومع ذلك أشهد له
بضمير خالص أنه أحسن ما صادفت من معلمي الترجمة وحرصهم
على نجاح تلاميذه

— أشكرك على اهدائي هذه المعلومات وارجو ان تحدثني بما
تعلم من معلم اللغة الفرنسية فانها اللغة الاساسية وامر هذا يهمني

أكثر من سواه

— نعم أحدثك عنه بما تطمئن له نفسك ويزيد في جذلك
وابتهاجك . انت الرجل معلم ماهر نادر المثال في حرفته
وطريقة تدريسه . وهو فوق ذلك نائر شاعر كاتب عبقرى
تشعر بطيب فؤاده وحسن طويته وسجاياه وان لم تره يدسم ابداً .
يمتاز عن رصفائه بثلاثة اسارير رأسية بين حاجبيه ونظارته
التي لا يرفعها عن عينيه . وما رأيته بسم مدة اقامتى بالمدرسة
الامرأة واحدة . وذلك انى رويت له ملاحظة سمعتها من معلم
الانكليزية وهي : لماذا نسمي الاسد ملك الحيوانات مع انه
ليس أقواها ولا اضخمها ولا اجراًها . ان الاجدر بهذا اللقب
الجاموس الوحشي المصري لانه يناطح القطارات ظاناً انها
حيوانات مضادة له . . . فتبسم الاستاذ من قولي وجاء رفاقي بعد
الدرس يهنئوننى بهذه النتيجة

— اذا كان الأمر كما تذكر فلماذا غادرت المدرسة قبل
الحصول على الشهادة النهائية ؟

— لأسباب صحية وبالأحرى لان ناظر المدرسة أوجد لي
صعوبات وعراقيل ضايقتى وسمت المدرسة من اجلها

— وما الداعي لمضايقته اياك؟

— انه كان لا يرتاح لرؤيتي ومن العجيب ان يتنازل الناظر من رفته فيضع نفسه في مستوى التلاميذ و يضايقهم

— مهما كان . . . فلا بد لمضايقته اياك من سبب

— ربما كان ذلك لاني لا أسلم عليه بالشكل الذي يرضيه

ويحتّمه على التلاميذ و يراه من الواجب نحو شخصه الموقر

لا يسمح لتلميذ أوقف بين يديه ان يقابل أمره أيّاً

كان بغير الطاعة العمياء والاذعان . فلا أدري ان كان له أن

يعتبر نفسه كقيصر فهل له ان يسأل تلاميذه كمسكر

— ارى ان لا بأس باتباع النظام

— يظهر انك لا تعرف الرجل فتصور خلقه كما كنت أتصور

أول الأمر . فاسمع قصة أوضح لك شيئاً من خلقه . ارسل

اليّ يوماً أحد ضباط المدرسة يدعوني اليه فقلت في نفسي لماذا

يدعوني الناظر وليس ثمة سبب ولكني امثلت الأمر وذهبت

الى حجراته فوجدت معلم الرياضة البدنية على باب الحجرة فسألني

— هل أرسل اليك حضرة الناظر؟

— نعم أخبرني الضابط بذلك

إذا أخلع معطفك (باطو)

— ولم ؟ .. أني مريض ... والجو بارد

— لا بأس مثلبسه بعد خروجك

— حاضر

خلعت معطفي فددق المعلم على الباب ثلاثا بنشاط ثم دخلنا

فلما اغلق الباب قال لي ما معناه باصطلاح المدارس هنا : دور ...

صفدن جاريا دن سرعتلى مارش ... بير ... هك ... بير ...

هك ... بير ... هك

الى ان وصلنا الى امام مكتب الناظر فقال معلم الرياضة

البدنية بصوته الرخيم ... دور ... سلام آل ... بير ... هك

دهشت من هذه الرسميات لدرجة فقدت معها صوابي

أوكدت . فكنت أقابل تلك الاوامر بالطاعة دون تعقل

وقفت امام الناظر مدة وهو مستمر في الكتابة لم يلتفت

الى فلما فرغ قال

— هاه ... انت سالم ؟

— نعم يا حضرة الناظر

— بظهر انك تفوق الآخرين في لعب التنس . منعمل ههنا

مضمار فخر كشفاً بأسماء التلاميذ الذين يرغبون في اللعب
وسمه للضابط

— ذاك يتيسر لحضرة الضابط بسهولة واظن ان اكثر التلاميذ
لا يرغبون في اللعب لما يكلفهم من شراء صوالج واحذية خاصة
والارض ضيقة رديئة

— هذا لا يهمك فافعل كما قلت لك واخرج الآن، هنا قال
لي معلم الجباز سلام ال ... بير ... هك ... صفدن جاريه
دن . سرعتلى مارش ... بير ... هك الخ . فعدت كما بدأت
اتباعاً للرسميات

فاستغرب الحاضرون قول سالم وسأله بعضهم أهكذا
تعاملون هناك أو انت مبالغ ؟ فأجاب سالم صدقوا ما أقول
وسلوا غيري ممن كان هناك ولكن لا تتشاء ما كثيراً فربما
تكونون ابعده حثاً واستمر قائلاً

— بعد خروجنا سألتى معلم الجباز ما منعك ان تسلم على
الناظر بنشاط وقوة وسمت معتدل ؟ فقلت له

— اني آسف جداً اذ لم اكن عسكرياً ... لا جيد تأدية
السلام القانوني يمثل هذه الحركات وارجو ألا تطالبني بما

طالبتني به اليوم ان دعيت لزيارة الناظر مرة اخرى . فما
اطعك هذه المرة الا بعد ان فقدت صوابي حين فاجأتني
بندائك النظامي »

واتفق اني كنت وقتئذ منحرف الصحة فالتمت من احد
اصدقائي بالفرقة ان يحرر الكشف المطلوب ونفقت يدي
من تلك المأمورية

مضت بضعة ايام تم فيها اعداد ما يلزم للعب التنس
وعرف لاعبيه واول يوم دار فيه اللعب جاءني ضابط المدرسة
وقال : صدر امر حضرة الناظر الساعة بحرمانك من لعب التنس
حتى يصدر أمر آخر . فقلت له

— اشكر حضرة الناظر من صميم قلبي لأن صحتي الآن لا
تسمح لي باللعب . وهالك دعوتان وصلتان اليوم من عائلتي
تدعوان الى اللعب فأضطرت ان ارفضهما للسبب نفسه . . .
اشكره لذلك ولانه جنبني اللعب في مضمار غير صالح مع رفاق
لا عهد لهم به .

ولا علم لي ان كان الضابط نقل الى الناظر قولي حرفياً
او بتصرف . من ذلك الحين اخذت اشعر بمضايقة جديدة . ظن

حضرة الناظر انه يؤلمني بحرمانني من التنس ويعلم الله انني لو كنت اذاك كامل الصحة لا رحت كل الارتياح لهذا المنع واي لاعب مدرب تتوقف نفسه للعب في مضمار كحوش الدجاج دون ان ابالغ . وصية ليسوا اكفاء ولكني لما رايته يهتم بتافه الامور الشخصية عزمت ان اجاريه فلا اتساهل في هضم شخصيتي دون ان ياخذني بشيء يتذرع به لتوقيع العقاب علي . انه ما فتىء الناظر من ذلك الحين يدعوني الى حجرته المرة تلو المرة لاسباب لا قيمة لها نظاماً او خلقاً وكنت امثّل امر معلّم الجباز كل مرة ولكني اسلم على الناظر كما اسلم على كبير اسرة راقية فلا يلبث ان تظهر عليه اشارات الالتماع والحنق وكما رأني واقفاً امامه كالمعتاد لا كمسكري كان ذلك بهيج من اعصابه ولا يجد مندوحة الى عقاب يذهب غبظه ويشلج صدره

— ولكن لم يرحل المدرسة ؟

— قلت ان صحتي انحرفت واعتراني مرض في المعدة كان يلزمني الفراش في كثير من الايام . وأشار عليّ الاطباء بعلاج لا يتفق الا مع اكل خاص حددوا انواعه وصفوفه وعرض

ذلك على الناظر فأبلغنا انه مستحيل بالمدرسة وانه لا يسمح لي بالخروج لتناول طعام الغداء خارجاً . فقدّم اليه والذي تقارير الاطباء القائلة بوجوب هذا العلاج طالباً صنع الطعام المناسب لسير مرضي بالمدرسة على نفقاتنا فرفض . فتوسل اليه والذي ببعض اخصائه من ذوي الحيشة وعلية القوم فرفض ايضاً ولما يئسنا من اجابة طلبنا كتب اليه والوالد يستغرب من هذه المعاملة القاسية مييناً له ان تشدده في الرفض ينتهي لاحد امرين : فأما ان يقتل المرض الطالب اذا لم يسمح له بالعلاج مع مواظبته على المدرسة واما انه ينقطع عنها فيضيع مستقبله . كل ذلك لم يكن ليؤثر على عواطف الناظر ولم يرعو بتوقع والد الطالب الذي لا يؤدي له سلاماً عسكرياً كلما رآه ولكن والذي لم تفارقه الرحمة فما فتى يضحج بالشكوى لاصدقاء الناظر وذوي مجالسه الذين يعدّون على الاصابع وكأنه شعر اخيراً بما يلحقه من شدة اللوم فسمح لي بالخروج وقت الظهر على ان اعود قبل ابتداء الدروس بنصف ساعة . منة كبرى تأسر القلوب وجميل لا ينسى على مدى الحياة لو انه دام لي التمتع بهذه الاريحية طويلاً فبعد يومين من امره الكريم

عاودني المرض في اليوم الثالث لأن العلاج لم يؤثر في سير
المرض بهذه السرعة فماذا فعل حضرة الناظر ؟ انه فاجأ والذي
بخطاب جاف خشن لا يزال يحتفظ به كتميمة وفيه يقول
انه نادم او آسف لمنحى التسهيلات لخروجي ظهراً وانها لم
تفد في مواظبتي. وطلب من والدي ان يرسل له شهادة من
طبيب في بحر ثلاثة ايام يحدد فيها الطبيب عدد الايام اللازمة
لعلاجي خارج المدرسة بحيث لا امرض بعدها وان يتعهد
والدي بتنفيذها وهو يتكرم بمنح اجازة عن تلك المدة .

يا آلهي على اي قاعدة بنا حضرة الناظر طلبه وهل يعزب
عن متعلم ان مرض المعدة لا يزول دفعة واحدة او في ايام قلائل
وأني طبيب يجراً على تحديد مدة ما لزوال مرض مزمين ؟
والحق اني الآن متحير في فهم معنى استغرابه من عدم شفائي
في يومين !!!

لما تبين لوالدي حسن نية الناظر نحوي رد عليه رداً جميلاً
وشكراً على عنايته بي وما منحني من التسهيلات حرصاً على
فائدتي وانه لا يرى مكافئاً على صنع جميله ويرجوه في قبول
استقالاتي مراعاة لصحتي . ولذا تراني الآن بينكم هنا

... شيء هلاك ... ما هذه المعاملة ؟

— هذا ما كان ... ربما كنت اعامل بغيرها من ناظر سواه

اما هو فهكذا خلق

— الغريب من امرك انك غير حاقده عليه وانت تراه آذاك

في حياتك وأضر بمستقبلك

— ولم أحقد عليه ؟

وهاك احمد الجالس على يمينك صادف من ناظره ما يحاكي

قصتي وهو لا يحقد على ناظره ولا يحمل له بين جنبيه ضغناً

— ليت شعري ما الحكمة في قسوة جميع النظار ؟

— جميع النظار ؟ لا تبالغ فالأمر بالعكس لانهم ينتخبون من

أمر كريمة وبعد ان يتموا التعليم العالي ويشتهروا بقوة الذكاء

وكرم الاخلاق وقلما تصادف منهم معاملة كالذي سمعت

— يا سالم انك لا تستطيع ان تخالفني وتقول ان ناظرك ...

— كلا ! ولو كان كما تقول لما كان داعياً لحقدي عليه لأنني لا

أتوقع ان تكون سلامة الذوق شجيرة في الناس اجمع والا فاني

فارق بين المذهب وغيره اذا تساوى الناس . فضلاً عن ان

مزية الذوق لا تظهر فتعرف الا اذا وجد أناس لاذوق لهم

وكل ما أقوله ان الناظر رجل طيب لانه مجد في عمله ولم يفعل
إلا ما ظنه من واجباته

— كفى الرجل شتما فان من مدح انسانا بما ليس فيه فقد
هجاه هجواً

— لا يا عزيزي عبد الرحيم لم أقصد شيئاً من ذلك وإنما لحدة
ذهنك تتخيل السوء حيث لا سوء وأؤكد لك انه ليس في
نفسي الآن للناظر أي ضغينه . نعم كنت ناقماً عليه ابان
اضطهاده لي ولو كنت شاعراً اذ ذاك لنظمت عواظي في
قطعت عنوانها « ناظر انتيكه »

ولو كنت مصوراً لاحضرت لوحاً طوله متر وربع
وعرضه ثلث متر ولصورته فيه بمزيج من محلول الالوان المعتمة
مجتهداً ان تبدو على وجهه ملامح اللطف والجمال وفي يده
هراوة او (بلطه) يهش بها على كبار تلاميذه ولكتبت فوق
الرسم بالخط العربي (مجلس تاديب في مدرسة عالية) وتحت
الرسم (الناظر الرقيق) غير اني لم أكن بشاعر ولا راسم
فضللت حزينا أفكر في سوء حظي لظروف وضعتني حيث كنت .
ولم تطل لي تلك الحواظر المزعجة حتى تلاشت ومضيت في

طريقي تبسم لي الحياة وأبسم لها كما تراني اليوم وكلما ذكرت
ذلك العهد ضحكت من تلك الظروف وعذرت الناظر الذي لم
يكن في امكانه أن يعمل غير ما عمل . فلا تحاول يا عزيزي
ان تكاف الناس بما ليس في طباعهم ولا في قدرتهم والا كنت
مكن يطالب المستحيل

وأكرر القول الآن ان لا داعي لاستبائي منه بل انا
معجب ببعض خصال فيه

— معجب ببعض خصال فيه ؟ ها ! ها ! ها !

ما مثال ذلك ؟

— كل من يعرفونه يقولون ان فيه كبرياء لانفراده بنفسه فلا
يماثر احداً كأنه يعيش في جزيرة منعزلة عن العالم ولكنهم
مخطئون . فليس الرجل يتكبر على ما أظن وليس في عزله
دليل على الكبرياء فقد يكون الذنب للناس لاله وربما كانوا هم
الذين ينفرون من معاشرته وهذا ما يغير وجه النظرية بالنكية
فاذا ظهر من معاملته شيء من الاحتقار لفئة غير قليلة من الناس
يمنحهم المجتمع بعض الاستبار فالحق في جانبه على ما أرى وإذا
وجدته ثقیل الظل على نفسك فلا بد ان تجدني مثله لاني

است ممن يعاشر ون كل الناس وعلى الاخص ابناء الباشوات
والموسرين المتفخين غروراً الذين يمشون في الارض مرسجا
شامخي الانوف بارزى البطون كفحول المصارعين . يحسبون
انفسهم الاعلى لا متلاء جيبوبهم بالقروش أو لأنهم يرتدون
انيق الملابس قد خاطها امر خياط في البلد ولا يفتخون افواههم
الا ليسمعوك كلاما متخيفا كأن يفتخروا بقدرتهم على تجموع
خمسة عشر كأسا من الوسكى دون ان يسكروا واشباه ذلك
فبأى حديث تتكلم مع هؤلاء . انى لا افضل الحديث مع غلام
في مطعم أو حاتوت نجار أو قصاب فقد يفيدني حديثهم أكثر
من هؤلاء لأنهم يتقنون منهمم التي لا أعرف منها شيئا .
فلا تأخذ يا عبدالرحيم على ذلك الرجل تجنب معاشره
الناس بل الواجب أن نلتمس له عذراً

— قد يكون له عذر في تجنب معاشره الناس ولكنى لا أرى
له عذراً فيما عاملك به

— أما أنا فاعذره لان الانسان غير مطلق الحرية فيما يعمل
وكان بين الموجودين شاب يتحادث معهم واحيانا ينصت
الى ما يتحدث به فقال لى بصوت المنيعظ

— أ إذا لطمتك تظل ساكناً لاني لطمتك مرغماً
لا باختيارى ؟

— هذا لا يحتاج الى ايضاح فأنك ان فعلت معي ذلك من
غير ما سبب حسبتك مجنوناً فاقدأ لقواك العقلية

ثم أملت رأسى الى ابن خالي أسأله عن هذا الشاب الجرىء
المفاجىء . فافهمني انه ابن باشا من اغنياء الصعيد قوى الثروة
الطائلة وهو مدع مغرور واني اذا سكت عنه تمادى في غروره
ورسوخ في ذهنه ان لا احد يحاكيه ذكاء وعلماً وكأني بابن خالي
وقد قصد بذلك ان يثير في نفسى الانفعال فانبري لمناظرته
فيتلهى هو والحاضرون بما يكون بيننا

ولما كان الحديث دأثراً حول الحرية والتقييد وبعبارة
اخرى حول الخيرة والارادة البشرية جاريت ابن خالي فيما
قصد وقلت لذلك المدعي

— تقول انك حر فيما تعمل وأقول ان اعمالك كلها محددة مقيدة
— هذه مضحكات المتدينين لعلك ممن يقول بالقضاء والقدر
— لا دخل للدين والمتدينين هنا وانما أقول لك انك لست
مالكا لاعمالك أي لست مطلق الحرية في حركاتك وسكناتك

— كيف ذلك ؟ ان أمرك لغريب !!
أترى اني لا استطيع ان اتهمض من مكاني فأخرج
ثم اعود .

— يا حضرة البك . اراك تخلط بين انواع الحرية . لنفهم
ذلك اولاً

فالحرية المدنية السياسية عبارة عن الحق المخول لك بان
تعمل في دائرة حددها لك المشرعون فانت حر مثلاً في ان
تنطلق حيث تريد ولكن السجين ليس له ذلك
ثم الحرية الفطرية وهي القدرة على الحركة كما تشتهي
والمفلوج لا يستطيع ان يفعل ذلك
ولكننا الساعة لسنا في صدد هذه الحرية بل في حرية
الارادة اي الحرية المضوية

اننا نزع القيام بعمل ثم نعمله وكأننا احرار في ذلك فهل
نحن احرار حقيقة نعمل بمحض ارادتنا واننا نتخير ما نعتقده
خيراً لنا قادرين على تنفيذه ؟

هبني ثقبلاً على روحك الخفيفة وتود لو تستطيع ان
تصغى من غير تردد . ولكنك قبل ان ترفع يدك تنظر اليّ

قتراني قادراً ان أكا فتك على ضعفك باربع صفعات محكمات
على قفالك وخمس لطيمات على وجهك فإني الا نبأة حتى تنثنى
عن عزمك لان الخوف وضعفك الجسماني منعاك ان تنفذ
ارادتك فضلاً عن اسباب اخرى . وبالعكس لو كنت ضعيفاً
لما احجبت عن لطفي وأنت تظن انك تفعل ذلك بمحض
ارادتك والحقيقة ما ممكنك من صفى الاضعفى ان لم يكن
نمة مانع آخر

نحن لا نأق عملاً الا اذا حملنا عليه اسباب مجهولة ولكي
يكون الانسان حرّاً بمعنى الكلمة يجب ألا يكون ما ياتيه في
الحاضر مؤسسا على الماضي . وهذا يستحيل

وازيد ان الانسان الذي تسميه حرّاً أي الذي لا ينوى
عملاً بالمرة والذي لا تدفعه قوة على عمل شيء دون الآخر
ولا يميل به داع الى جهة دون الاخرى ليس حرّاً ايضاً لانه
يظل جامداً لعدم ما يسوقه الى العمل فمن ذلك ينضح لك ان
حريتك لا عمل لها وان ما تسميه حرية ما هو الا نوع من
التقييد ويزيد اعتقادنا في حريتنا حينما ندرك النسبة
الدقيقة والرابطة الوثيقة بين اعمالنا واخلاقنا من جهة وبين

اجسامنا من جهة اخرى ويفوتنا ان نلاحظ ما في ذلك من
منافاة الحرية الحقيقية

— ليس كلامك بواضح تماماً ولم تات بما ينبغي وجود الخبرة اى
الحرية فنياً جازماً

— على رسلك . تيقظ الى ما اقول

ان الاعتراضات الواردة على نفي وجود الحرية اما ان
تكون ناشئة من البحث فيما وراء المادة اى من الوجهة الدينية
واما ان تكون من الوجهة العلمية والبسيكولوجيه . لندع الان
الوجهة الدينية جانبا لقيامها على مسألة القضاء والقدر التي يظهر
انك لا تعتد بها لما بدا لي منك من احتقارك اللاهوتية وضحكتك
حينما قلت آناً اتنا لسنا احراراً ظاناً اني ساجل محور كلامي
القضاء والقدر . ولتكم على الاعتراضات التي يوردها الفلاسفة
العصرين والتي اساسها العلم لا غير والتي تسجلك دون سواها .
لتعرف انك لا من هؤلاء ولا من هؤلاء

ان التقييد الطبيعي **Déterminisme physique** ديتيرمينزم
فيزيك (واظنك قرأت شيئاً فيه او سمعته) مبني على المبدأين
الآتين :—

الاول — كل تغيير يطرأ على جسم من الاجسام لا يمكن ان يكون له الا سبب طبيعي يعنى ان تأثير روح على جسم وتأثير شعور او حس على حركة غير معقول بالمرّة لعدم امكان توقعه قبل حصوله او تحديده (اى ان حدوثه لم يكن منتظراً ولا مقداره معلوماً)

الثاني مبدا استحالة انعدام القوة أبداً (فالناموس الطبيعى في هذه الحياة ان الاشياء تزول شكلاً ولا تنعدم جوهرًا عند بعض الماديين) (١) فلا يضيع شيء في هذا الوجود ولا يستجد شيء وما يفقد ظاهراً من الحرارة والضوء والكهرباء مثلاً يكون قد تحول الى عمل عملناه

فاذا كان لارادة الانسان القدرة التي تنسبها لها بحيث لا يستطيع ان يحور بها احساسه ويغير بها اعماله فقط بل يستطيع بها ان يتسيطر على جسمه والاجسام المحيطة به . فاذا تأتى للص ان يغير طبعه بمحض ارادته ويبدله بطبع آخر يمنعه عن السرقة واذا تسنى لذى المزاج القصبى ان يبطل فزة الغضب ويستعيز عنها السكينة والحلم واذا كانت السكر المدمن والمدخن الذي

(١) هذا الرأي ضعيف وتقدمت مناقشة في الجزء الاول

قضى معظم عمره يدخن بكثرة يستطيعان الانقطاع عن السكر والتدخين دفعة واحدة . لكنت الارادة هي التي توجد القوة وتستفز الحركة . وللزم ان يسوى هذا المبدأ بما ينطبق على ذلك والقائلون بهذا المبدأ يرون ان اعمال الناس نتائج طباعهم وان طباعهم نتائج جبلاتهم (امزجهم) وتركيب اجسامهم والمؤثرات الاخرى

تصور لصاً في حدائمه كأن يكون في العشرين من عمره مثلاً ولد من ابوين سكيرين وعاش في وسط كله لصوص فهل ينتظر من مثله ألا يسرق وهو لا يخشى الله ولا القانون ولم ينل فسطاً ما من التهذيب فلا خلاق له من شعور حي ولا ذمة تجرد من كل خلق كريم وفضيلة تدله ان السرقة امر منكرو فاذا سرق فهو يسرق عادة مسروراً مرتاح الضمير لما يعمل ولا يتعير بقول الناس له سارق فهو في الحقيقة ليس بحر واي انسان نشأ نشأته منذ نعومة اظفاره فلا بد ان يكون مثله ولا يمكننا ان نتخذ من معاقبة القانون لمثل هذا اللص دليلاً على حرية او ان القانون يعتبره حراً مطلق التصرف في اعماله فان الشارع يعرف جيداً ان ذلك اللص المسكين لم يرتكب جرمه

الا بدافع طبيعي وانه ليس في وسعه ان يعمل خلاف ذلك
واذا حكم عليه بالسجن فذلك لا بعاده عن المجتمع الذي اصبح
ضاراً به وخطراً عليه وبمثل ذلك يعامل القاتل وهما في الحقيقة
مرضا القوي العقلية

هل نحمد على مريض لكرهه انفاسه وقيئه وما يكافنا
نمريضه من العناء الممل (المقرف)

واذا كنا لا نتقزز من ذلك فهذه الشفقة التي تتولد في
قلوبنا طبعاً لضعف الانسان الجسماني اشعر بئسها ولا ريب
لضعف الانسان العقلي فكلاهما جدير بالرحمة لنبوغهما من اصل
واحد ولا فرق بينهما عندي

الى متى يقبمون حداً فاصلاً بين امراض الجسم التي
لا تريب على ذويها والامراض الروحية التي يؤتمنون المضامين
بها وفي اى نقطة تنتهى هذه وتبتدى تلك ؟ ألا ترى ان ذلك
حد وهمي لا وجود له ؟ وهل فاتك أيها النبيه ان الروح
يجبث بها قيراط من خمر أو حبة من أفيون ؟ فشمه من البنج
او نظرة من منوم مغناطيسي تجعلنا لا نستطيع ان
نتكلم . بل لا يمكننا ان نمسك عن الضحك او البكاء لدى

ما يوجه أحدهما . فاذا كنت لا تستطيع ان تكون كما تشتهي
فرحاً أو حزيناً فكيف تستطيع بنوع أخص ان تكون صالحاً
أو طالحاً قوياً أو ضعيفاً كما تشاء . (الا ان الروح والجسم
سيان في قبول المرض بل الجسم اقوى في تحمل الامراض عن
الروح) . فالرجل اما ان يكون له نفس طيبة أو نفس خيثة كما
يكون له صحة جيدة أو صحة ضئيلة ولكنكم لا تقرون بذلك
مهما اتضح الامر وقام الدليل . فلا بد لكم دائماً من مجرم
تقدمونه للقصاص . فكلما وقع حادث من احد اسرعتم رافعين
الايدي للضرب لا لطلب الففران

فاعتقاد البعض في حرمتهم اليوم كاعتقاد بعضهم في الماضي
ان الارض ثابتة في متوسط الكون

هنا قال شريف بعد ان ظل تلك المدة صامتاً

— ارجع بنا الى مسألة الارادة التي كنت تتكلم عنها الساعة
وتدعى انها لا تتفق مع القوة

— عفواً . انما كنت اقصد رأي بعض الفلاسفة المصريين
أما انا فلم أبداً رأي الخاص فيما قلت ولا يهلك الآن ان ...
— عظيم . عظيم . سلت انه ليس في طاقة انسان مهما كانت

ارادته ان يزيد او ينقص في القوة بأن توجد ارادته حركة جديدة او تعدم حركة موجودة أفلا تظن الارادة البشرية وان كانت عاجزة عن خلق الحركة او عن اعدامها ليست بعاجزة عن قيادتها وتسييرها فاذا دفننا كرة قدم لكي تكسبها سرعة معينة فان قوة الدفع واحدة مهما كان الاتجاه الذي اخترناه . اذ لا دخل للاتجاه في السرعة . وهذا لا يمنع من وجود الإرادة التي تقود القوة في تلك الحالة

— ان اعتراضك هذا يا عزيزي مغالطة قديمة

اذكر انه يلزم لكي تقود الحركة وتسيرها ان تكون قادرين على ايجاد الحركة فاصغ لما اقول . كرة القدم امامك على الارض فاذا ضربتها برجلك اي اودعت فيها كمية معينة من القوة اتجهت اتجاهها معيناً . لا تتحول عنه بمجرد ما فيها من قوة . وانت لا تستطيع ان تغير مجرى اتجاهها الا اذا تحولت عن مكانك وضربتها ضربة اخرى تسير بقوتها . افن لا معنى لما تقول . والا فكيف تظن ان الارادة هي الموجدة للحركة مع انه يلزم ان يكون للموجد قوة لا حد لها وليس لارادتنا تلك القدرة الغير المحددة . سألني احد الشاينين اللذين لا

اعرفها مبتسماً

— تزعم ان جميع اعمالنا مقيدة بالظروف والمؤثرات التي نحوط
بنا وتجعلنا نتبع في تصرفاتنا ما يطابقها
— نعم ؟ ...

— ألا تظن اننا نأتي في كثير من الظروف بأعمال لا نحدد لها
ولا سبب بل نعملها بدون اكترات ولا تفرقة . مثلاً اذا اردت
ان تؤدي ديناً عليك فانك تناول مقداراً من دراهمك لدائتك
دون تفريق بين ما تدفعه وما يبقى معك واذا هممنا بالمشي
بدأنا بالرجل اليمنى او اليسرى من غير باعث على البدء باحدهما
— هل انتهى كلامك ؟

— نعم

— فهمت . اسمع . ان مثل الافعال التي ذكرتها لم تكن من
غير سبب ولم تأت عفواً بل لا بد لها من سبب باطنى (ولو
جهلناه في الغالب) يدفع بنا الى ما نعمل
— وما هو ذلك السبب ؟

— لا أعرف بالضبط ما هو فانه يختلف باختلاف الاشخاص
— دعنى اضحك قليلاً . الله درك . ما امهرك في التخلص من

كل مازق . فكلمنا عجزت عن الجواب قلت انك تجهل السبب
والحقيقة ان لا سبب هناك مطلقاً ولو ساء لك ذلك
— ليتك تدري كم تحدث في نفسي من السرور بتسرعك في
الاستنتاج على ما في اسلوبك من لطف . ولكن كيف تصورت
اني اتخلص من محاورتك بقولي آنفاً (لا بد من سبب لكل
فعل ولو جهلناه)

اما مثلاك اللذان ضربت فاسبابها ظاهرة
— أوافقك انت مما تقول ؟

— طبعاً : وما حكاية قضاء الدين الا مغالطة صغيرة واهنة
تصور ان حان دفع دينك ودراهمك امامك فوق
المنضدة او فيما يقرب من متناول يدك فان كنت بخيلاً
ترددت كثيراً قبل ان تأخذ منها . ثم تضطر الى ذلك فتختار
القطع العتيقة وتستبقي الجديدة فهل تسمي ذلك عدم اكتراث
او تدبر . واذا لم تكن بخيلاً مددت يدك فآخذت اقرب
القطع اليك ولا تتجشم اخذ البعيدة وهذا بناء على قاعدة
(اخف الامرين كلفة واقربهما متاولاً) وهذا يناقض عدم
الاكتراث بل هو نوع من التقييد

واما حكاية البدء في السير بالرجل اليمنى او اليسرى
فهذه الطة واهية البنيان ايضاً

كلنا نلقن في المدرسة حال التمرين على السير ان نبدأ
برجلنا اليسرى فيصير ذلك عادة لنا ومن جهة اخرى نلقن
بمقتضى اعتقاد قديم انه يلزم البدء في السير بالرجل اليمنى
نميناً . فترى الكثيرين يفعلونه قصداً وباستمرارهم عليه مدة
بصير عادة راسخة فيهم

فمن ذلك ترى اننا اذا بدأنا السير باليمنى او اليسرى
نفعل ذلك اما بالاعتقاد او العادة وكلاهما سبب يقيد
عملنا لدرجة

— شيء عجيب . ولكني اشعر بأني حر غير عاجز ان افعل
ما اشتهي

— اما انا فيؤسفني ان أقول لك انك مخطيء
— كيف تقول ذلك ؟ ألا ترى اني أستطيع القاء هذه الكوبه
على الارض فأكسرها ؟
— هذا في استطاعتك

— ألا ترى اني أستطيع ايضاً تركها سليمة فوق المائدة

— وهذا في استطاعتك . ولكن فعلك هذا او ذاك لا يبرهن

ان لك الحرية التامة على فعل ما تريد

— كيف ذلك ؟ امر عجيب . اذا كان في امكاني كسرها

او تركها فكيف لا أكون حراً ؟

— نعم انت غير حر . أتريد ان توهمني انك حر باستطاعتك

كسر الكوبة او تركها سليمة . ولعمري انك لو اقم . اجبني

اولا . لماذا تريد كسر الكوبة

— لماذا ؟ كي ابرهن لك على اني حر

— انك لن تبرهن بذلك على شيء البتة لانك انما تعمل

ذلك لعرض هو ان تبرهن على حريتك . فبكسرك اياها تقصد

تكذبي بأظهار قدرتك على كسرها متى اردت . أتدري على

اي شيء تبرهن بعملك هذا . انك تبرهن به فقط على انك

رجل عنيد لانك ان كسرتها لتبرهن بكسرها على حريتك

وتخطئي برهنت على عكس ما تريد اي على انك مقيد خاضع

لعنادك ورغبتك في معارضتي وقد نشأت عندك تلك الرغبة

وانت لا تشعر بها . ان اللص حين يسرق لا يطيع الا ميله

سبب السرقة وانت كذلك لا تطيع الى طبعك الغالب عليك المسير لارادتك المقيد لعملك تستطيع ان نسمي ذلك حرية . اسمع انك ان همت بمارضتي فذلك بالرغم منك اذ لا تستطيع ان تفعل غير ذلك فكيف تجرأ ان تتكلم عن الحرية مع ان كلامك بهذه الكيفية ينافي الحرية . هل اتاك حديث مذهب التقييد البسيكولوجيك **Determinisme psychologique** ان القائلين بهذا المذهب ينشون مذهبهم على التطورات الفكرية فقط . فهم يقولون ان الخواطر الطارئة على القلب مقيدة بالطواريء التي طرأت قبلها اي ان كل خاطر يخطر على قلبك ما هو الى نتيجة خاطر سبق وهم يملكون ذلك باستقصاء افعال الانسان وتيسر ادراك ما سيعمله قبل وقوعه .

فباستقصاء اي عمل اختياري للانسان يتضح انه مسبوق دائماً باستشارة نفسانية وان العمل بعد هذه الاستشارة يكون دائماً بمقتضى اقوى الاسباب . مثلاً اذا كنا نعرف تماماً زيدا من الناس فأننا يمكننا ان نخبره بلا تردد . عن السلوك الذي يسلكه في اي ظرف من ظروف حياته . نعم قد نخطئ احياناً في حكمنا عليه ولكننا في تلك الحالة لا يجب ان ننسب الخطأ

الإلى جهلنا بحقيقة جبة زيد او الظروف التي احاطت به
ويعتمد هذا المذهب (الدترمينزم) على مبدأين :

انه لا عمل بغير سبب ومتى كانت الاسباب هي هي
والظروف التي احاطت بها لم تتغير فالنتائج التي تسبب عنها لا
تتغير ايضاً فمن ذلك يتقرر ان كل الاعمال مقيدة باسباب وان
الحرية ما هي الا امر تخيلي . يظهر ان كل ذلك غير كاف
لاقناعك لاني ارى عليك سببى الواثق من نفسه

ربما كنت مصيباً . يرغم الفلاسفة المصريون باننا لسنا
واقفين لاثبات الفعل من الاستسلام لاسباب وعواطف في
مناي النفس وما اكثر الميول النفسية التي تجذبنا الى اثبات هذا
العمل او ذاك في كل لحظة ولا نشعر بوجودها . فنحن في
نظرم مسيطرون غير مخيرين .

ان من نؤم تنويعاً مغنطيسياً قد يؤمر بارتكاب جرم ما
في غده في ساعة معينة منه فاذا كان الغد ارتكب ذلك الجرم
وهو لا يشعر انه مسوق لارتكابه بقوة خارجية

نحلم احياناً اننا نتكلم بالفاظ تدل على فكر وارادة ونظن
في حالة الحلم اننا نقول ذلك بارادتنا واننا قادرون على تنفيذ

ما نقول . والحقيقة غير ذلك . والسكران يتكلم كلاماً يتجاوز
حد المعقول كما يتجاوز ما في قدرته وهو يظن انه مالك لقواه
العقلية . اذن شعورنا يغالطنا في حال النوم واليقظة والمرض
والصحة

نظن أنفسنا أحراراً كلما غمت علينا الاسباب القاضية
بأفعالنا وتنسب لآنفسنا الافعال التي تنشأ من المؤثرات الداخلية
والخارجية

— اذا كان الامر كما تقول فلا معنى للواجب والمسئولية
والقصاص ولا للثابة او العقاب

— قبل ان أجيبك على استنتاجك هذا اخبرني هل أنت
معتقد بصحة الدترمينزم (التقييد) اندي بنيت عليه هذا
الاستنتاج ؟

— ان لك طريقة حسناء في تجنب الاجابة مما تسأل عنه

— أنسب لي ما شئت فليس ذلك بمانعي عن اجابتك .

ان «التقييد» لا يمحو من العقل ادراك الواجب والمسئولية ولا
التمييز بين الحيث والطيب . فالانسان مهما كانت اعماله محددة
باسبابها فلا يزال متمتعاً بعقل يدرك به أحوالاً أدق من حاله

التي هو عليها ويطمح الى غاية يجاهد في الوصول اليها كي يكون
أرق حالا. وهذه الغاية التي وضعها نصب عينيه تظهر له أسمى
درجة فتجذبه الرغبة للوصول اليها ولا يلبث عمله لذلك ان
يصير أمراً ضرورياً فيكون مجبوراً للوصول الى غايته ومن هنا
يصح للفلاسفة ان يقولوا ان مثل هذا الرجل مقيد بغايته
اما مسألة المسؤولية والارتياح الى الاثابة او العقاب فيكفي
لنفسهما ان نفكر قليلا في العلائق الموجودة بين الانسان وبنى
جنسه . ان كل الاعمال النافعة للمجتمع هي طيبة ويجب
تشجيعها لان تشجيعها واسطة لنموها وتعددتها وكل الاعمال
الضارة يجب معاقبتها لان عقابها واسطة في تقليلها او محوها
فالغرض من المسؤولية التضامن بين افراد المجتمع في اداء
ما يجب لكل او عليه لغيره والغرض من الاثابة او العقاب
فائدة المجتمع كذلك

— اذا كان الامر كما تقول فلا يجب علينا ان نعذب

من شتم او ضرب او مرق

— هو كذلك . فمن العبث البين ان نعذب على من اساءوا الينا

اذا عرفنا انهم ليسوا الفاعلين الحقيقيين لتلك الاساءة . ألا

ترى اني لا أغضب منك لانك تضائقني بأرائك ؟
لا تنسَ صحة العكس . فلا داعي لشكر من أدى واجباً
نحوك ولا للأمتنان ممن احسن اليك لانه يفعلهُ مرغماً بناءً على
نظرية التقيد فانت لا يجب عليك شكرى لما علمتك الآن من
الاشياء التي كنت تجهلها . ولكنك للآن لم تقل لنا لماذا تعتقد
وجود الحرية

— طبعاً لانك شغلت الوقت كله بكلامك . من جربنا الى
هذا الموضوع ؟

— هو صاحبنا سالم بحكايته مع ناظر مدرسته وقلنا في اول
الحديث ان الناظر غير ملوم فيما عمله معه واتفق انك لم تشاركنا
في هذا الفكر فجرت بيننا تلك المناقشة

— نعم . تذكرت الآن انما يظهر انك مقتنع تمام الاقتناع
بصحة نظرية التقيد ولكن سالماً بالرغم مما يتظاهر به من
موافقتك لا يحجم عن التهمك على ناظره كلما سنحت له الفرصة

— كلا ان سالماً يحتقر ذلك الرجل لدرجة يترفع معها عن
الحقد عليه فاذا تكلم عنه قائماً هو يعدل بما يوافق رأى بعض
فلاسفة الالمان القائلين ان الصمت على الاذى دليل على الحقد

ولا يصدر الخقد من قلب سليم طاهر الشعور ولا شك
ن الاصرار عليه ليس من خلال النفوس الآلية
ذا تراه يتكلم عنه كما يتكلم الانسان عن رجل لا يكثر
به : فما ظنك ؟

— ظني انك عقدت النية على معارضتي وانك حسبتي
أبله او ساذجاً لا وزن ما يقول

— حاشا ان أكون كما قلت ! واني لا أسمع لنفسي ان ارى
مثله في مناظر قبلت ان اناظره لا سيما من كان متعباً مثلك
حاصلاً على شهادة البكالوريا . اني أجلّ التعليم في مصر وفي
مدارس الحكومة على الاخص . قد اجمعت الاراء على ان
حائزي تلك الشهادة هم الاذكياء فكيف أتصدى لخرق هذا
الاجماع او احدث نفسي به

— وماذا يدل الحصول على اي شهادة ؟ اني لا اجد دليلاً
على حدة الذكاء وغزارة العلم اللهم الا اننا نجهد النفس طويلاً
لنتجمع في امتحان هذه الشهادة فكم غيباً حصل عليها ولم يبد منه
ما يدل على النبوغ او الفضل

لست من رأيك . فان المجتمع لا يحكم على انسان

بمقتضى ما تقول بل بما حصل عليه من الشهادات الدراسية
في طفولته

— أرايت كيف تقصد معارضي دائماً . وتبين لي ذلك
منذ محيثك فقد كنت تنظر الي شزرا . فلنوقف هذه المناقشات
— كلا ! لقد اخطأ ظنك بي (فان الامر بالعكس) اذ
أجد في حديثك تسليه وترويحاً بل اني معجب لأفكارك
وربما أثرت على افكاري
— أنسخر مني وتضحك؟؟

— اي نعم يا عزيزي . لان ذلك من طبعي ولا استطيع
تركة فأتى اضحك من اخوتي واصدقائي ومن اصادفهم في
الطريق بل اضحك من نفسي

لماذا تريد ان احقرك بالآلة التفت اليك ولا اكثرك
بك ولا اكتم عنك اني اذا التفت لاحد فلا اني اجد منه ما
يضحك فاضحك

لما حضرت كنت مشغولاً بالحديث بصوت ظاهر
العظمة والنفخفة . فما الطف . ولقد صغيت لحديثك ملياً وانا
اضحك بفؤاد منشرح مما تقول وتورد من لذائذ الافكار الراقية

ولما رأيتك لا تنقطع عن الحديث فكرت في ان اتكلم مثلك الى
ما شاء الله وقد فعلت ولكن آسف اذ لم استطع ان امر
الحاضرين بحديثي واضمحكهم كما كنت تفعل . اسمع اسمع هل
لك ان اصحك نصيحة مخلص فتخلص عنك رداء الظهور
وتخضع من صوتك ولا تحاول ارغام سامعك على القول بسمو
مداركك بزخرف الحديث واعلم اني لم اقصد بجادلتك طويلا
الا لأريك انك في غرور واننا كلنا نكره كل مختال نفور
متأنق في حديثه بظهر في مظهر المعلم بين قوم جهلاء . فلماذا
قابلتنا بخشونة اللفظ والصلف ؟ ألا ننا لم نشارك في رأيك .
لئن كان هذا رائدك فقد اخطأت

نعم جادلتك لتسليه النفس وقضاء الوقت والضحك ولو
جاداك غيبي لصرح لك بجلى العبارة انك مدع بالعلم
وأخرجك بين الحاضرين وسخف آراءك تسخيفا
أجل لا يخلو احد من العيوب ولا نستطيع نكران ذلك
فكل منا له عيوب كثيرة يشعر بها ويجتهد ألا تظهر منه . وقلا
نجد من يحمله النزق والطيش ان يدعي كمال التهذيب أو ان
يسدل الغرور غشاوة سمكة على بصيرته فيتصور نفسه الفذ

الليق . على ان اصلاح امرك بيدك لو اردت وانه لم ين
يسير . فلقد كنت مثلك في طفولتي تدفعني الرعوة الى
التدخل في كل حديث لا تظاهر بالذكاء والفصاحة فوقعت
يوماً بين مخالف رجل جمع بين الدهاء واستقامة الطبع والخبرة
بما يؤثر في النفس والشعور فبدأ يهزأ بي بلطف ويريني
من الاشارة والتعريض في القول برهاناً على طيشي وجهلي
فلم تأخذني من ذلك الحين رغبة للاندفاع في حديث لا
يعنيني الدخول فيه عملاً بالحكمة القديمة (اذا كان الكلام
من فضة فالسكوت من ذهب) فان كانت ولا بد من
الكلام فليكن كمذهب القائل

تكلم وسدد ما استطعت فانما كلامك حي والسكوت جماد
فان لم تجد قولاً سديداً تقوله فصمتك من غير السداد سداد
لن أنسى أبداً ذلك اليوم الذي أضحك علي لسماحتي
عشرين رجلاً أو يزيدون . أجل ان الصمت أمر ممدوح
واحياناً يكون ضرورياً . قال لي صديق اوربي يوماً اذا كنت مع
سيدة على انفراد فلا تجتهد ان تكلمها كي لا تكون ثقيلاً على
نفسها فاذا دعوتها للركوب معك في عربة مثلاً فلا تظن أن

الواجب واللياقة يقضيان بمحادثتها بما يسر قوادها ويشرح صدرها فيفوتك ان ذلك ليس من الادب في شيء . فاذا قضت الغاروف ان توجد مع سيدة وشعرت بضيق في نفسك فتأكد انها متضايقه مثلك ولكن اذا جاز لك ان تتضايق وحدك فلا يجوز لك ان تضايق سيدة في صحبتك وبالأحرى ترى انه يجب عليك ان تزيل ما في نفسها بآية وسيلة كانت فتأخذ في محادثتها مجتهدا في ادخال السرور عليها وان تجاذبها أطراف الحديث برقة وملاينة ما أمكن . فاذا كانت السيدة فطنة شعرت حتماً بانك انما تفعل ذلك لاعتقادك أنها سئمة وقالت في نفسها . ان زميلي يظنني متضايقه وحيث انه يراني كذلك فلا بد أنه هو نفسه يشعر بضيق في هذا الوقت . فترى أنك بعملك هذا أفهمتها أنك ضائق الصدر في حضرتها وهذا لا يليق بمؤدب ان يفعله اذن يجب عليك الا تجتهد في محادثتها كما يظنه بعض الناس من الواجب والظرف

على ان صديقي كما رأيت لا يمتدح الصمت فقط بل يريد ان يفهمنا ان الكلام على النمط المتقدم منافي للآداب . وغني عن البيان ان دعواه لا تخلو من المغالاة

— اراك لبثت تتكلم مدة طويلة مع انك توصينا
بالصمت ونحبذه

— أجل فاست بالكامل من بين الناس فقد كلامي عيياً .
أنصح غيرى بترك الاطالة في القول وأطيل
— أزف وقت الانصراف

ولما هممنا بالخروج قال لي

— هل لك انت تراقبنى الى المدينة لتتناول طعام
العشاء في أحد المطاعم ثم نذهب الى قهوة بها موسيقى
— اليك معذرتي واني آسف لعدم امكاني مرافقتك فيما
أردت لأنني تعب وليكن ذلك في فرصة أخرى
— لا أقبل منك عذراً ولا بد من مجيئك معنا على أي
حال . . . الخ

ولما رايت الحاحهم لم أرد ان أطيل رجاءهم (لي) فقلت
— اني معكم فهلتم .

وفي اثناء انصرافنا اقترب احد الشابين من الآخر فأمر
في اذنه حديثاً سمعته وهو يظنني لم اسمعه فقال
— هذا الشاب نموذج غريب في خلقه ومشربه . منسقيه

حتى يسكر وحينئذ تنوق نفسه الى الخطابة والهذيان فنسمع منه
حديثاً اطول من ليالي الشتاء ونشبع منه ضحكا وسخرية
فقلت في نفسي يا الله ما اغباها من شاين مفتونين وحيث
اضطرت لمراقبتها هذه الالية فلا بد لي ان اكون الضاحك
منها الساخر يدها طعها وغرورها معها تكلفت في سبيل ذلك .
واخذت افكر فيما عساني ان افعل فخطر لي ان ادعو ابن خالي
ليكون مصافحتين به وفعلا دعوته فأجاب ثم اوعزت اليه
ان يفهمها بما يمكنه من التأثير اني غريب الاحوال ببحر علم
ذاخر ضليع بالفنون كثير الاطلاع غزير المادة شاعر ناثر
أديم البحث في مسائل الجغرافيا والتاريخ القديم والفلسفة واني
كنت دائماً اول فصلى (وان لم اكنه أبداً) وبالأختصار اني
أفوقهم علماً وادباً وذكاء وقوة حجة وان كل ما قلته حق
مؤسس على الحقائق العلمية وآراء اعظم الفلاسفة العصريين
وان يردف ذلك بقوله ان لي حالات مدهشة وافكار تخالف
الناس على خط مستقيم . اوعزت اليه ان يغريها بذلك بينما
اكون بعيداً عنهم في مركبة الترام أقراً جريدة على انفراد حتى
يكون قوله ابلغ في التأثير وادعى للايمان به فينشوا عن فكرة

الضحك مني وبتهيباني

ولما وصلنا المدينة لاحظت ان ابن خالي اقصمها تأثيراً
واسترهاياً وسحر عقولها حيث اقترب مني احدهما موجساً وسألني
ابن اود الذهاب فقلت كما تريدون فركبنا عربة سارت بنا الى
مطعم يمكن لمن اراد الطعام منه ان يتناوله في الغراء

وكان المطعم في حديقة ذات اشجار باسقة الفصوص متسعة
الاطراف وقمر السماء كأنه الريال المصري الجديد يرسل اشعته
الفضية على تلك الأشجار المورقة فتتغذ من خلالها ويقع ظل
اوراقها على ممشى الحديقة فيرسم خيالها شكل قطعة عظيمة من
(الدتيلا) السوداء قد انبسطت على الرمل الابيض وقد
برق الجمال بين الافنان وتلاعبت يد النسيم بالاغصان تثير
كامن الحب ولواعج الأشجان

فأخذنا مجلسنا حول مائدة وطلبنا العشاء . وكان بجانبنا
جندي قد جلس يتشاءب سماً بينما كان خلفه رجل متأنق
قد لبس جوربا فاقع اللون يظهر من اعلى حذائه الضيق .
يسارق النظر سيدة على مقربة منه وله سحنة جامدة وسمت
صناعي يستر به مغازله كأنه صورة رسمت بالزيت وحولها

— ألك عادة في الشرب ؟ ؟

— نعم اشرب كثيراً

— ماذا تشرب ؟

— اشرب شايًا

فنظر سائلي الى رفيقه كأنه يساله عما اذا كنت مجنوناً
او انا اهزأ به ثم قال

— اما زح انت انما اسالك عن صنوف الخمر ؟

— عفواً لا اشرب منها الا قليلا جداً في ظروف خاصة

مراعاة لصحتي

— قلت انك تشرب الشاي بكثرة واي لذة تجد في شربه

فقلت في نفسي قد جاء دورك (لبلفها) للسخرية منها

وان تخاطبهما بصوت خشن وتلقى ما تشاء من المحاضرات .

فأجبت .

— ان الشاي يسكر بقدر الكحول ولكوني مريضاً بالامعاء

اشرب الشاي كي يصلحها ولذلك اتعاطى عشر كاسات كل يوم

على الاقل من الشاي الاسود النقي . ان الشاي منه للاعصاب

وميج لها طارد للنوم فاذا مضى على تناول تلك الكمية ثلاثة

اربعة ايام مع قلة الطعام احس بشعور لطيف كاني ثمل ثم
سمع في اذني ضرباً من الطنين يصل الى راسي . واعصاب
تي كانت هادئة قبل تلك المدة تنعصى عن اطاعتي وتتغلب على
رادتي لشدة ما تهيج وتصطرب شرب الشاي من جهة وقلة النوم من
جهة اخرى فأصير كمن يسوق زوجاً من الجياد قد جمح ونقلت فمائه
من يديه الضيفة وهو ذاهل لا يهتدي كيف يصنع . وبكثرة
ما أهيج من اعصاب بهذه الوسيلة بينما اعالج معدني في الوقت
نفسه يطرأ على تخدير وتحدث عندي نشوة تجعلني اتخيل
تضيلات عجيبة كالتي يتخيلها شارب الخمر تماماً فاشعر بميول
غريبة وقد اظنني ارقى العالم وألحظ غيري بعين العظمة واخاطب
نفسى احياناً بصوت المحتقر وكثيراً ما اشعر بالميل الى البكاء
حينما ارى اخواني يضحكون من كل شيء . يضحكهم الذكي كما
يضحكهم النبي . والشعاذ والغني . حتى اتراهم يضحكون من
مار عثر فكسرت ساقه واذا ذهبت الى «السينيما توغراف»
وانا في هذه الحالة خرجت منه اشد وهناً وأضيق ذرعاً اميل الى
امور عظيمة واحوال شاذة كأن اشتهى الذهاب الى ميادين
القتال لا نقذ جريحاً ار اغيث ملهوفاً او اوامي الاوائل

والإيتام والشكلى

اشمرا ان كل شيء يحذبني اليه وتكاد عيناى تذرف لمنظر
(أرغن) لشحاذين او صفار يلعبون على الارض او شيخ
عاجز يتسول

فانا انظر اليهم كأنهم صور خيالية وبعبارة اخرى كما
ينظر الشارب التمل

يظهر انكم تشكوّن في صدقي فاذا كان هذا حالكم
فجربوا مثلي . كلوا بضعة ايام خبزاً يابساً مغموساً في الشاي وانتم
ترون بانفسكم ان التخدير بهذه الوسيلة الذم من تخدير الخمر وانه
يستمر اكثر منه . والشاي لا يحدث قيئاً ولا صداعاً ،

وبعد ان مكثت مدة أحدثهم عن تأثير الشاي بدت
على الشاين علامات الددشة والاستفراغ فإشار اليّ ابن
خالي بالكف عن هذا الموضوع ليموّه عليهما بموضوع آخر .
وبعد هنيهة قال لاحدهما

— أتعرف كتاباً مسلياً او رواية مروّحة ؟

— اتى لا أقرأ الا في الكتب الدراسية مدة الشتاء وفي

الصيف استريح وأتريض

فالتفت اليّ ابن خالي قائلاً :

— ليتك تكتنى روايات ملبحة بدل تلك الكتب التي تقتل
لوقت في المكوف عليها
عند ذاك قال لي احدهما :

— يظهر اذك لا تقراً الا الكتب العالية الجديدة
— بالعكس فقد كان آخر ما قرأت كتاباً في الاحلام
— في الاحلام ؟ وما دعاك ؟ ... واي فائدة ؟ ...
— لا لشيء . بل من باب الاستطلاع . . . سألت نفسي
يوماً كيف نحلم وهل ما يقال عن الرؤيا حق وعمّا اذا كانت
تنبئنا عن المستقبل ؟

— حسناً فعلت ولا بد ان في هذا الكتاب احسن
تسليّة . وقال الآخر :

— اني لم افكر في ذلك قط والآن اأشوق لقراءة كتاب
في الاحلام . فقلت
— لست متأكداً من أنه يروقك ولكنه لا يخلو من
امور مسلية

هل سأتم انفسكم مرة لماذا نضحك حين السرور

ونبكي حين الحزن ؟؟ ..

— الحق ان هذه النظرية جديدة بالتفكير وان لم يخطر ببالنا ان نفكر فيها من قبل الخ .

هنا رأيت الشاين يعبراني سممها بمجد وشفف وقد انقطعا
عن محاولة الضحك مني وظهرت على ابن خالي شاربات السرور
لتمكنه من تغيير مجرى الحديث الى ذلك الموضوع دون ان يشعر
هذان بغرضه . وفي الواقع لولاه لما استطعت ان أفعل شيئاً من ذلك
وبعد سكوت لم يطل قال احدهما

— ألك أن تشرح لنا شيئاً مما قرأته في الاحلام فأني أشعر
بميل شديد لمعرفة شيء عنها
فقاطعه الثاني قائلاً لي

— لا الا ارجوك أن تبين لنا أولاً لِمَ نضحك في السرور
ونبكي في الحزن فيسيل دمعا ؟

وبينما هما يتنازعا على تقديم الكلام في احد الموضوعين
على الآخر ساروني ابن خالي بلطف فقال

— قد صنعت لك الفرصة لتسحر عقلها وتحملها على
تصديق كل ما تقول فها على استعداد تام لذلك وعليك ان

تتظاهر بوقار المعلم فيما تلقيه أيها حتى لا تفهمها أنك ساخر بها
تريث قصداً حتى تنارات صفحة الأرض وجرعة ماء ثم
شرعت في الكلام والشابان منصتان مصغيان كما يصفى طلبة
الأزهر لاسألتهم أثناء الدرس

— است في حاجة أن اذكر لكم تعريف الحلم فقد لا تخلو
ليلة من رؤيا منشؤها لدرجة عظيمة من تأثير الحواس . أن
الإنسان يفكر في حال النوم كما يفكر في اليقظة (١) وكثيراً ما
يفكر في حل مسألة مثلاً قبل النوم ثم ينام من غير أن يهتدى
إلى حل ويظل فكره مشتغلاً بها أثناء النوم بالرغم منه . وقلم
تتخدر أعصابنا بالنوم لدرجة نفقد معها الشعور والحواس كلها
تماماً . فالأذن مثلاً تلبث سامعة لدرجة ما

وحسنا الباطني يلبث متصلاً بسير الحياة الخارجية ينبه
الحواس الظاهرة لدى كل طاريء فشعاع ضوئي قوى
أو رائحة شديدة أو ملامسة كذلك توقظ المرء من منامه . فإن

« ١ » إذا كان النوم عميقاً فالنائم لا يذكر تفكيره بعد يقظته أما
إذا كان غير عميق (وأغلب ما يكون ذلك قبيل الصباح) فإنه يتذكره
ويتصور ما رآه وهو ما نسميه بال المنام

كانت ضعيفة أحدثت فيه شعوراً دون أن توقظه ومن ثمّة
توارد علينا محسوسات كثيرة بمؤثرات خارجية أو داخلية
(كعسر الهضم والتشبع بفكرة) ومن هذه المحسوسات اللطيف
والسار ومنها المزعج والمحزن تمر متسلسلة آخذة ببنان الفكر
المتخدر بالنوم . وتأثير المخ إبان النوم من العوامل القوية .

إن تأثير حالنا المحيية (حالة المخ) والدورة الدموية لمن
الأهمية بمكان عظيم فلذلك تختلف الرؤيا باختلاف ما نكون
عليه من الحالات فحينما تكون الصحة معتدلة والنفس مبهجة
تكون الرؤيا لطيفة سارة ولها حال آخر إذا اعتل الجسم وضغطت
على النفس الهوم فتضطرب أحلامنا بصبغة الجسم والنفس . وعلى
أي حال لا ينبغي أن تعتبر الأحلام صورة أمينة لما يحويه المرء
من خلق وطبع وإن قرر ذلك بعض علماء النفس . فقد تفيض
إلى النفس فيبوض في حال نومها لا يستطيع المرء جمع شواردها
إذا ما قام من نومه وأنتا نعمل في منامنا أعمالاً صورية
لا نستطيعها في اليقظة . يزعم ذلك البعض من علماء النفس أن
الأحلام تدل إلى حد ما على حال المرء وأخلاقه لأننا نتقيد
في يقظتنا بأحوال كثيره كالتأديب وخشية الجمهور ومراعاة المقام

وتلك قيود تكون النفس طليقة منها في حال نومها . خذ لك مثلاً رجلاً يرى في منامه مناظر طبيعية ويتأثر من منظرها جد التأثير يكون ذلك دليلاً على ولوعه بفن التصوير او استعداد له . أما الذي يحلم كثيراً بسماع الانغام الشجية والاصوات الرقيقة فاحلامه هذه دليل على انه ذو اذن واعيه او انه مفهم بفن الموسيقى وكذا البطن الجشع فانه يتصور الاطعمة اللذيذة ويكاد يذوق طعمها في رؤياه فكل يرى في منامه ما يحبه في اليقظة حياً جماً او ما يلفته اذا رآه افلا نستطيع امام هذا الرأي ان نقرر أن الرؤيا دليل على خلق الراي وطبائعه وما يميل اليه ويشتهي في يقظته ؟ ولكن هذا رأي مردود عليه فان الدعامة القائمة عليها اخلاق المرء هي الارادة ولا ارادة له وهو نائم .

فتراني في حيرة . أقول ان الاحلام تكشف الستار عن خلق الرجل ام غير ذلك ؟ ولكن الثابت اننا نرى الامور مكبرة بعيدة عن حقيقتها مشوهة العوامل التي احدثتها فتسمع خفيف الصوت صياحاً مزعجاً ونحسب المذعة الخفيفة ضربة مهند او ونحسبهم والحركة البسيطة وقوعاً في هاوية ومن جهة اخرى يظهر على الوقت القصير الذي يستغرقه الحلم انه وقت طويل

وازمان بعيدة فقد ترى في زمن وجيز ما قد يستغرق من وقتك اياما بل اشهرآ للخطواف به او لعمله. وقد أكد لي بعضهم ان أطول الاحلام لا يستغرق الا بضع ثوان . وهذا حلم الراهب « موري » Maury فقد رأى في منامه انه يعيش في ايام الثورة الفرنسية وبينما هو جالس يقرأ في جريدة اذ القت السلطة القبض عليه وزجته في اعماق السجون بتهمة التآمر على العرش وقدم للمحاكمة بعد ان استغرق التحقيق ثلاثة اشهر وفي يوم الجلسة دافع عن نفسه بخطبة طويلة ثم صدر الحكم باعدامه فأخذوه الى تلك الآله الجهنمية (الجيليوتين) فنظر اليها وخطب قليلاً ثم سطحوه ومرعان ما سقطت رأسه عن جسمه . واستيقظ في الحال فرأى حديدة من سقف سريره قد سقطت على عنقه . وانه لمن البعيد ان يكون قد صادف وقت رؤياه قطع رأسه بالسكين ووقوع تلك الحديدة في آن واحد ولكن المؤكد ان تلك الحديدة هي التي ايقظته وتستتج ان وقوعها هو الذي سبب هذا الحلم الطويل في طرفه عين . واظن ذلك كافيا ان نعلل رؤيا من يسمع قصص المدافع وفرقة القنايل كأنها تنفجر فوق رأسه وسفير الرصاص

ناشئ من هبوب الرياح وتحريكها شبائك النوافذ وكثيراً
ما شاهد ذلك في ليالي الشتاء الطويلة حين اشتداد الانواء
وهبوب الرياح فيرى صاحب الحلم حين استيقظه من
نومه صفير الهواء ويسمع حفيف الأشجار وخريف المياه

يمكننا إذن ان نستنتج ان تلك العواصف هي التي تسبب
امثال هذا الحلم ام يكفي ان نقول بأنها ساعدت على تكوين
الحلم بهذه الصورة وهذا مرجوح لأن الريح لم تهب لا ننا حلمنا
بل نحن حلمنا لأن الرياح هبت فأثرت في نوافذ الحجرة
واحدثت اصواتاً قوية

وعلى كل حال انهم للآن لم يبتوا شيئاً فيما يختص بأكتشاف
الاحلام . وقد قرر كثير من العلماء ان الرؤيا خاصة الهام تنبئ
عن الغيب . أصحيح ذلك ؟ ان الصحيح المحرب ان الاحلام
التي تنشأ من ألم جسماني تنبئ لدرجة بوقوع ما يهددنا من
الامراض . فانا أحلم مثلاً انهم يشقون كتفي وبعد ذلك يومين
تصيبني نوبة (روماتزم) شديدة في كتفي . وليس بغريب ان
يرى تلميذ مهمل انه رسب في امتحانه ثم هو يسقط حقيقة فيه
بعد رؤياه بأيام فهذا التنبؤ وامثاله ليس بمعجيب ولا مجهول السبب

وقد قال (فلتير) « ان الاحلام ضرب من التشاؤم فالرجل
المعموم لمرض عزيز له قد يحلم ان مريضه مات فاذا مات
المريض في الغد او بعده عد الرجل ذلك الهاما أخبر به عن
الغيب . فالناس لا يعون الا الاحلام التي يتم تأويلها اما
الآخرى وهي الاكثر فسرعان ما ينسونها » (١)

« ١ » اذا كانت الاحلام اسبابها اشياء خارجية فكريا فيها . فما
الذي يجعل المرء يحلم بصديق له بعيد عنه لم يره منذ سنين ولم يخطر له
على بال في اليقظة ؟

قد يمر بخاطر الانسان صورة صديق له دون ان يظن للسبب
وذلك كأن يصادف في الطريق رجلا يشبه صديقه او يرى رجلا يشبه
خادم صديقه او يرى في حانوت فاكهة يحبها ذلك الصديق وقد اكلها
هو كثيراً في منزله او نحو ذلك مما يجعل الصديق يخطر بباله دون ان
يشعر ويكون ذلك كافياً لتسيب الحلم

ثم ان بعض الناس يحلمون بمناظر في مدن لم يروها . فاذا ما ذهبوا
اليها بعد مدة طويلة وجدوا المناظر التي رأوها في المنام فيستمتعون من
ذلك نظريات مضحكة ويأتون بتفسير لا أساس لها ويفوتهم انهم ربما
قرءوا أو سمعوا أوصاف مدن كثيرة وكانوا في كل حالة يتصورون
صوراً خيالية غير واضحة تماماً لكثرتها ولكنها قد تكون منبع احلامهم
فاذا سافروا ورأوا مدينة جديدة خيل لهم أنها عين التي رأوها في
منامهم والحقيقة انها تشبهها

وهذا هو السبب في اعتقاد من يعتقدون في احلامهم انها
تبدلهم عما سيحصل في المستقبل دائماً

وبين انواع الاحلام ما يسمى (بالسومنبوايزم) او الحلم
الفعل في الحلم المادى لا تبدو لنا الا صور واضحة لا قوة فيها
لتجعل النائم يأتي عملاً حقيقياً و بعبارة اخرى الحلم المادى لا
وجود له الا في عالم الخيال فكل ما نراه او نعمله في النوم امور
وهبة ولكن الامر يخالف ذلك في الحلم الفعلى ففيه يتحرك
النائم ويتكلم بصوت ويعمل بعض الاعمال كأنه يقظ . هذا
كل ما يحضرني الساعة مما قرأته في هذا الموضوع ولكني مع
الاسف نسيت اشياء اخرى مهمة للغاية

— الحق انه موضوع شائق مروح ولقد اتحفتا مما قرأته

بما فيه الكفاية

ثم تنازعوا امرهم بينهم واسروا التجوى بينما كنت متشاغلا
ياكل فاكهة واحسب ان ابن خالي قال لها

— هل صدقتاني الآن

وبعد برهة قال لي الآخر

— اتسمح ان نخبرنا لماذا نضطك ونبكى . وكيف ذلك ؟

— لا اكتم عنك ان هذه مسألة من اصعب المسائل ولم
اتوصل بعد الى فهمها حق الفهم (١)

ساءلت الكثيرين عن سبب ذلك فما أجبني الا
احدهم بطريقة مفقدة لم افهمها لعدم المامي بعلم التشريح واجابني
آخر بطريقة اوضح والظاهر انها مبنية على اساس غير متين
وهذا ما قاله لي : « متى تذكرنا او حزنا لشيء اتر (مخنا)
على المجموع العصبى بطريقة ما تزيد في سرعة الدورة
الدموية فيصعد الدم الى رؤوسنا ونشعر في ذلك الوقت بزيادة
الحرارة . وهذا الدم يسوق امامه الى الرأس البخار الذى
يقابله عند صعوده . ولا يخفاك ان اجسامنا تحتوى على مقدار
كبير من بخار الماء ويظهر ذلك جليا متى نفخت بنفسك على
كوب ماء او صفحة زجاج او بلور او صفحة الخ . ما علينا .

(١) لم اوضح سبب ذلك على حقيقته ولم اقصد قل ما قاله العلماء
فيه لعلمى انه لا يخفى على مطلع او شاب متعلم وهو على العموم
مشروح بطريقة سهلة الفهم شرحا حقيقيا واقيا فى كتاب (ديكارت)
المسمى **Traité des passions** وقد وضع (برجنس) رسالة في
الضحك ترجمت الى الانجليزية سماها **Le Rire** اما ما قلته فكفى
لاقتناع الشاين ولو انه مغالطة

هذا البخار يصعد الى الرأس ويطرق خلف العين (الرتيننا)
شبكة باردة فيتحول الى قطرات ماء تنحدر من العينين ادمعاً
اظن هذا التعبير لا ياباه العقل .

اما الضحك فناشي من عكس النظرية المتقدمة
فمتى سررنا لرؤية صديق او صورة هزلية او لسماع نكتة
تبعي الدورة الدموية في سيرها فتتخفض درجة الحرارة
ونحس بشيء من البرودة ونشعر براحة ولا يخفى ان البرودة
ينشأ عنها انكماش . ولما كانت عضلات الوجه اكثر مرونة
من سواها كان انقباضها بسهولة امراً بدهياً في حالة
السرور . ومتى انكمشت العينان ارتفعت الوجنتان ويتبع ذلك
انفتاح الفم فتبدو الاسنان ويسفر الوجه عما نسميه ابتساماً
وكثيراً ما يكون التقبض فجائياً مصحوباً بهزات عصبية في
الجسم والصوت وهذا ما نسميه بالضحك وقد قال لي محدثي
الذي أراد ان يطلعتني على كل ما يعرفه في موضوع
الضحك ..

ان ثمة أناساً يزعمون ان الضحك ينشأ من تقليد بعض
صنوف الحيوان . وزعم (الدروينيون) الذين يشتمون الانسان من

القرده ان منشأ الضحك راجع الى تقليد القرد ويفسرون ذلك فيقولون : اذا طرحنا لقرد تفاحة فانه يفتح فاه ويرينا اسنانه ويهدد من يحاول اخذها منه فهذا التهديد تحول شيئاً فشيئاً الى تبسم فضحك دال على السرور خال من التهديد . . .

فقال احد الشايين

— ان اكثر ما قلته صحيح على ما ارى

وقال الآخر

— اي نعم كل ذلك صحيح فهكذا نبكي وهكذا نضحك.

فغمز ابن خالي قدمي بقدمه كأنه يغريني بالاستمرار أو كأنه ينبهني الى صواب نظره فبهما من انهما غيان وفي الواقع انهما يماثلتا بحبذان قولي رغم اظهاري الشك فيما اقول ولما رأى ابن خالي عزمي على الاستمرار في شرح هاتين النظريتين غير مجرى الحديث وكانت قد سبق علمه اني قرأت شيئاً في (النظر) فقال

— لا ازال اسائل نفسي اذا كان ما قاله لي علي صحيحاً ؟

فسأل احدهما

— وماذا قال لك علي ؟

— انه حدثني حديثاً غريباً اذ قال : ان للنظر يدرك طول
الاجسام وعرضها اما عمقها فلا يدركه ويزعم ان تلك نظرية
لبعض الفلاسفة

فقال احدهما

— ولكن ما برهانه على دعواه ؟

قال ابن خالي : —

— ان الاطفال بعد ولادتهم باشر لا يدركون تماماً
حقيقة المسافات فتراهم يمدون ايديهم ليتناولوا شيئاً بعيداً عنهم
ظانين انه واقع في متناول ايديهم وقد يمدونها ليتناولوا ذلك
جملة مرات وهذا ناتج من زيغ في البصر كلنا عرضة له بسبب
نواتي الظلال والنور . . .

فقال احدهم

— هذا لا يدل الا على شيء واحد وهو اننا لا ندرك
جيداً بالنظر مقدار العمق وهذا لا مرأى فيه فلا ينافي اننا
ندرك الاعماق بالنظر مطلق ادراك

فقال ابن خالي

— ليس ذلك كل ما قال علي فانه اخبرني بامور اخرى منها

انه اتضح من عمليات اجريت على اشخاص ولدوا عميا
ظابصوا بمجرد انتهاء العملية وقد سأل الطبيب بعضهم : ما
أول ما ابصرت ؟ فاجاب : كنت احس الاشياء كأنها
تلمس عيني

من المعلوم ان كل شمع ينبعث من جسم لا يصل الى
العين الا من طرفه اي ان الاشعة لوقوعها عموديا على العين
لا يصل منها الى الشبكة الا استثناء المشرعة اليها واذن يكون
من التطرف الادعاء بان العين تدرك العمق اللهم الا بمقدار
حكمتنا على طول عصا بمجرد مسنا طرفها لا غير .

ان الأشياء التي نراها يكون طولها وعرضها وعمقها في
مستوى واحد . فهذا دليل على ان العين لا تدرك العمق فلو
حددنا حجمها برسم طولها وعرضها وعمقها على لوحة مستوية لتوهمنا
ان له سمكا (عمقا) مع ان الامر بخلاف ذلك .

اذن رؤية الاعماق ما هي الا مغالطة ضوئية . على اني
ارى ان هذه النظرية لا تغلو من الظرف .

ثم نظر الي فقلت له

— يجوز ان تكون كذلك واظن اني عثرت ببعض

اعتراضات عليها

فقال لي احد الشاينين

— اذن انت تعرف هذه النظرية

— نعم اذكر اني قرأت تلك الاعتراضات . اما

حكاية الاعمى وهي اول ما أورده في برهانه ففيها نظر . فيلزم

ان نعرف ما اذا كان الاعمى الذي سأله الطبيب يستعمل

قوله (أحمس الاشياء كأنها تلمس عيني) بالمعنى الذي تفهمه نحن

ولا يغيب عنا انه يصعب عليه استعمال معاني الكلمات الدالة

على وظائف العين وان كان يعرف ألفاظها . زد على ذلك ان

العين يطرأ عليها بعد العملية شعوران جديداً لم تعدهما من

قبل في وقت واحد وهما الشعور بالبصر والشعور بملامسة

الهواء لدخوله فيها لأول مرة

وبمقتضى هذا لا ينبغي التعويل على كلام الجريح الذي

يستعمل لفظاً واحداً للدلالة على معنيين أو أكثر عقب العملية

لانه حينئذ يلقى كلامه جزافاً . ولا يفوتك ان كثيراً من

التجارب جاءت مناقضة لتجربتك التي ذكرت

فقد رؤي بين المولودين عمياً الذين أجريت العمليات

على أعينهم من يمد يده من فوره بمجرد انتهاء العملية ليصيب شيئاً أمامه . فلو تراءى له الشيء ملامساً لعينه لما مد يده بعيداً عنه

هذا وقد برهن (كوفيه وشوفرويل) على أن أفراخ الدجاج بمجرد خروجها من البيض تستطيع ان تمشي وتتجنب الموانع التي تصادفها في طريقها . وترى الحبوب المبعثرة حولها فتلتقطها ولو لم تثمر عيونها بعد على النظر . وهذا يستدل على أن أبصارها تهديها الى البعد الثالث وهو العمق
بقي لدينا الاعتراض الأخير وعيه ان القائل به لا يحسب حساباً للقوة الباصرة

ان بصرك بالشيء يتغير بانتقاله من اليمين الى اليسار في مستوى أنقى كما يتغير بقرب الشيء وبعده فيحصل من ذلك جهد عظيم لمضلات العين لتحديد بالبصر الى الارتسام على الشبكة واستيضاح المرئ بقدر ما يمكن من الوضوح
فلهذا المجهود العظيم الذي تبذله العين نحن مدينون بـ
بيروز ابعاد الحجم الثلاثة في الفراغ الطول والعرض والسمك
وحينئذ كاد ابن خالي يقهقه ضحكاً اذ تبين له ان الشاين

وجما لا يفقهان ما أقول ولم يدركا أى ترزعزع أو خطل في
إبراد هذه النظرية . بل كانا يصدقان كل ما يسمعان ويحبذانه
دون أدنى معارضة . وكان ذلك داعياً لسروره لا سيما أنه
راى البون الشاسع بين الحال التي كانا عليها أول الليل وما
صارا إليه بعد . وقد انقطعت كل رغبة لهما في المناقشة والضحك
منى . ولكن ذلك لم يكن كافياً لمرادنا فتناولت قلم الرصاص
وكتبت على المائدة قريباً من ابن خالي لفظة « كرم » دون
ان يراها غيره وذهبت اغسل يداي . ولما عدت قال أحد
الشابين

— لا شك ان صديقك سالماً مجنون لانه ينكر الكرم

— لست من رأيك

فقال لي الشاب الآخر

-- كيف ؟ أتوافق سالماً فيما يرى

— وماذا يعنيك ؟ اذا لم توافقه انت فبرهن اولا على

خطائه قبل ان ترميه بالجنون . لماذا تسخرون برأى يديه

الغير اذا خالف آراءكم ما دمتم لا تستطيعون تفنيده ؟

— ليست المسألة في حاجة الى التفنيد فامررها ظاهر

— لله درك . افهمت ما قاله جيداً ؟ انه يقول لا وجود
للكرم من حيث كونه لفظاً الا في اللغة والذهن لانه غير
مادى (١) اي لا يوجد كرم من غير كريم وهو مع ذلك لا
يرى ان الكرم فضيلة يفتخر بها لانها ناشئة في الغالب من
حاجة في النفس كالاشمة وحب الشهرة او لفائدة ما . فاذا قام
الجم الفقير من الباشاوات والموسرين بدفع اموال للجسميات
الخيرية ونحوها فذلك لكي يقال انهم كرام فيجبهم الناس
ويشقون بخيريتهم ويكبرونهم ويلهجون بالثناء عليهم فاذا ظفروا
بتلك الامنية وبلغ آذان الحكومة ما يقال عنهم فلا تلبث ان
تدعوهم لما يخلو فيها من المناصب والرتب السامية التي تحتاج
الى ذى ثقة وميول خيرية كرتبة المدير او الوزير لاعتقادها
انهم يكونون ابعد الناس عن المحاباة والرشوة

فمثل هذا الكرم لا يمد فضيلة على رأي سالم

— نعم قد لا يمد مثل هذا الكرم فضيلة ولكن هل كل

الكرام كمن ذكرت ؟

— لا أنكر عليك ان كل الكرام ليسوا كذلك . . .

— ما رأيك في رجل يمر ذات ليلة في طريق مظلم بامرأة
تقترب التراب وحولها صبية يكون من البرد وليس ثمة من
يراه في تلك اللحظة ولا شيء يمنعه ان يمر في طريقه الى غايته
لأن المرأة نفسها لم تسأله احساناً وهو مع ذلك يخرج من جيبه
بعض الدراهم فيعطيهما . فهل هو يفعل ذلك من غير
طيب خاطر ؟

— كلا ! اني اوافقك على انه يعطيها الدراهم مرتاحاً عطائه
ولم يقصد بذلك شهرة او احراز ثقة ولكن على اى شيء يدل
عطاؤه ؟ اتظن ان ذلك الرجل اذا مر بتلك المرأة وهي تضحك
وتداعب بنيتها اكان يعطيها شيئاً ؟ لا اخاله يجود لها بشيء لانه رآها
تضحك على ان الضحك والبكاء لا يغيران شيئاً من حالها
التعسة .

فاذا اعطاها ذلك الرجل شيئاً من الدراهم فلم يكن فعله
بغير ما سبب ذلك لانه رآها تبكي وتئن من ألم ما تجد فأنرت
حالتها في نفسه وآلمته ورأى اليها فهزت بذلك اريحية للعطاء
الذي يعلم انه يخفف من آلامها فيقطع بذلك ألمه . ولولا ذلك
لما اعطاها شيئاً فهو لا يعطي الا الفقراء الذين يؤلمه انينهم أو

يؤثر في نفسه تشويه منظرهم

فما نسميه كرمًا ما هو في الحقيقة الا رياء منشؤه حب
الظهور والعظمة وان ما نسميه كريماً ينبغي بكرمه ثناء جزيل
يربو على أضعاف ما تجود به يده أو ليدفع عن نفسه ما يتولاه
من الجزع والألم لمنظر مؤثر أو أنين محزن

وبعد ذلك كله يوجد من يجرأ ان يسمي كل كرم فضيلة
فكم من عيوب تقوم عليها الفضائل. وكم من فضيلة ينجل المرء
من نسبتها اليه لو اطلم الناس على اسبابها

يلوح لي انك غير مقتنع بصحة هذا الرأي . فلك ان
تذكر لي فضيلة من أمهات الفضائل تستحق ان نسميها كذلك
كي نتناقش في أسبابها

الاخلاص ؟ هو ان تفتح قوادك لصديق ليقرا ما فيه
وتوقفه على كل ما ينطوي عليه ضميرك ولكن هذا تعريف لا
وجود لحقيقته الا في الكتب . وحقيقته الراقعة أي المتبادلة بين
الاصدقاء عبارة عن اخفاء ما في القواد اخفاء دقيقاً بحيث لا
تم عليه الاسرة والعيون لاكتساب ثقة الغير

أم التواضع ؟ . دعني اضحك فالضحك جوابي في توضيح

تلك الفضيلة . ان تحيك عن قبول الشاء والشكر ما هو منك
الا رغبة في المزيد

أم الشجاعة ؟ وما هي الا حب الفخار أو الخوف
من العار أو الرغبة في الأراء أو في رغد العيش . أو الميل
لأفلال الغير . فهذه كلها اسباب تقوم عليها الشجاعة
فكل عمل تراه يفخر به الناس ويسمونه فضائل أساسه
الأنانية لا غير . فاذا تظاهر الرجل بالفضيلة فاعرض مقصود
وفائدة نفسية فالفضيلة تضع في الفائدة النفسية كما يضع النهر
في البحر (١)

وبينما كنت اتكلم اذ حضر سالم لتناول العشاء على
ما اظن . فاشرنا اليه فجاء ولم نلبث ان دخلنا في مناقشة
أخرى غيرت مجرى الحديث . فسأل أحد الشابين سالماً قائلاً :
— متى تظن الحرب تنتهي يا سالم ؟
فاجابه سالم ومن طبعه الصراحة :

— انا يا عزيزي البك لست من هؤلاء المعتوهين الذين

(١) بعض الآراء المتقدمة مستنبط من حكم لطائفة من فلاسفة
الفرنسيين وقد تداولها الفلاسفة في كل الأمم من قديم الزمان

يرجمون بالغيب تنبؤاً بنهاية الحرب لان ذلك يتطلب قبل كل شيء الوقوف على الاحوال الداخلية والخارجية للأمم المتحاربة قبل الحرب واحوالها الحقيقية الآن . فإين أنا من معرفة ذلك والحكم عليه . ولقد رأينا أكبر القواد الحريين الدارسين المسائل السياسية درساً دقيقاً المباشرين ميادين القتال يحجمون عن ابداء رأيهم في ذلك أو يقولون فيخطئون . فكيف تريد ان أجراً انا أو تجراً انت على الخوض في هذا الموضوع أو ادعاء الكفاءة لان تفقروا ليس لنا به علم . من أين لنا الوقوف على العوامل التي تطرأ على قوى المتحاربين بفائضة أو نسبية . والحوادث التي تقع بانتظار أو بدونه وبيننا وبينهم حجاب كثيف من جهل الحقائق وشاسع البحار والمدنث والفقار . ان أكبر عيب في اخلاق الشباب المصري التعرض للحكم على ما يجهلون ~~ك~~ به سفاهة وغروراً . فدعنا من التكلم فيما لا نعلم ولا يعنيننا أمره ودع الامر لمن يهمهم من فضلك والا كان التصدي له من أحدنا دليلاً على غباوته المتناهية»

كان هذا الجواب من سالم صدمة شديدة بالنسبة للشايبين جعلهما يفضلان مناقشتي على مناقشته اذ كنت أتلف

في معارضتها وأجاريهما في مضمار جدلها دون ان أنسبها
للعبادة صراحة حتى صارا ينظران اليّ نظرهما الى عالم ضليع
بآداب المناقشة والمناظرة بثقان بكل ما اقول . ولو ادعيت
ان الارض ثابتة او انها من ذرى الذكاء والفطنة لآمنا
بقولي .



الجزء الثالث



مضى شهر على تلك الليلة التي أعدها من بلادي ليلاي
لنصفاء القلائل التي صادفتها في حياتي . ثم أصابني مرض الزمى
الفراش فجاء لعيادتي صديقي شريف صباح اليوم التالي لمرضى
كما جاءت لعيادتي السيدة « بيرت » وهي معلمة عجزت قضت
معظم حياتها في تدريس آداب اللغة الفرنسية . فاضطرت
لمقابلتها في حجرة نومي . وكان من عادة شريف مباحثة ذلك
السيدة حتى يشرق حياها أنسا . ولقد بقيت فيه تلك الرعاية
التي تشاهد عند معظم الاطفال فترام يقابلون الاشياء بالهم
فهو يضحك من كل شيء يراه ويتهلل وجهه كلما قابل انسانا
في لقاء بارتياح وترحيب كأنما يتلقى صديقا عرفه من قديم .
ولعمري انه لرجل سعيد لا تفوته فرصة للتبسط والانشراح
وبعد هنيهة سألتني السيدة « بيرت » قائلة :

— أين وصلت من الكتاب الذي شرعت في كتابته من

مدة ؟

— الكتاب ؟؟ . . . قد انقطعت عن مواصلة السير فيه منذ

أيام وقرت عزمي وانصرفت عنه رغبتني

— لماذا ؟؟ . . .

— خطر لي ان اكتب هذا الكتاب لمن قطعوا دور التعليم

الابتدائي من التلاميذ مجتهداً ان اوضح بقدر المستطاع بعض

نظريات فلسفية ينبني أن يلم بها الشباب وقوى عندي ذلك

الحاظر لما رأيت مدارسنا الوطنية خلوا منها . ولعلي نجحت في

هذا العمل او كدت فان كل من حادثهم في شأنه وأطلعهم

على ما كتب اظهروا اورياحهم اليه ومشاركتهم في شعوري

بالحاجة اليه وانه يفتح باباً جديداً للكاتبين . فلئن لم احسن

التأليف في موضوعه فقد يكون عملي منبهاً لمن عساه ان يجيد

الكتب في هذا الموضوع . على ان الامر لا يخلو من فائدة

للطلبة يثرون عليها فيه وانا الاخر استفيد من آراء المستقدين ولا

أقل فائدة للطلبة من أنهم يتناقشون في ما يحتوي من النظريات

التي قد لا تخطر لهم المناقشة فيها

— إذن لم توقف عن الكتابة ؟ ؟

— الحق اني لا اعرف تلك سبباً قويا . وغاية الامر اني منذ أيام تحادثت في شأن الكتاب مع ابن عمي وهو ذلك الفتى الذي يخلق شعره وبلغك كثيراً عن ذكائه الحاد وحصوله على الشهادات صغيرها وكبيرها . ولقد خاب ظني اذ كنت أتوقع انه يجيد فهمه بسرعة وانه يوافق على ما فيه . فاذا كان مثله لم يصل الى ذلك بسهولة فكيف أطمع ان يدركه من دونه من التلاميذ ؟

من ذلك الحين استتجت اني لم أحسن بيان ما اكتب فوقفت عن الكتابة . على اني ناقشته حين ذاك في بعض النظريات التي اشتمل عليها حتى تيسر له فهمها فطفق يقدح فيها ويأليته اكتفى بذلك بل جعل يشنع ايضاً على الفلاسفة المصريين ناسباً آراءهم للسخافة ولم اتمكن من اقناعه ولم يكن هو من جهة اخرى ممن يناقشون ليفهموا . فكان يقاطعني كلما حاولت اقناعه ويصيح قائلاً : « يستحيل عليك ان تبرهن لي على انه ليس للانسان ارادة واننا لسنا احراراً في افعالنا نختار الطيب وتجنب القبيح »

يقول ذلك باضطراب وحدة ويستمر فيكرر قوله :
« يستحيل عليك ان تقنعني اني لا اتخير اعمالي فاحبس نفسي
بأرادتي عند حدثها عن عمل شيء او لسانى عن كلمة سوء .
واني غير قادر على كبح جماح النفس اذا شردت في هواها »
ولم يكن تهويشه ذلك لبذهب بصبري فقد كنت اجيبه
— « اذا حبست نفسك عن حدثها فذلك لان صوت
الحكمة وصوت الرحمة كانا أقوى في خلدك من دافع الحدة
فأرغمك الاقويان على طاعتها بينما أنت تظن أنك عصيت
نفسك وفللت شبة حدثك . وعلى العموم كلما خالفت نفسك
وهواك كان ذلك لوازع في ضميرك طائناً أنك حرفي اعمالك .
ان ارادتك مهما كانت ضعيفة او قوية فليس بيدك أمرها
لأنها تكونت على حسب الظروف التي أحاطت بك منذ نشأتك
فارادة الانسان متوقفة دائماً على الاسباب المكونة لها بناء على
نظرية (التقييد) *Determinisme* »

وما كدت انتهي من هذا الايضاح حتى صاح بجدته
المعهودة ولهجته السريعة قائلاً : « برهن برهن على ذلك »
— بأى شيء تريدني أن اجيبه ياسيدي بعد كل ما قلت

له وما قرأه في كتابي ؟ وكيف يمكنني ان ألخص آراء الفلاسفة
المصريين الذين طرّقوا هذا الموضوع منذ قرن تقريباً نافين
الارادة المطلقة عن الانسان ؟ . كيف يمكنني تلخيص ذلك
في كلمات قليلة كي اقنعه ؟ لا سيما وهو لم يقرأ شيئاً من مبادئ
الفلسفة ليكون على استعداد لقبول امثال هذه النظرية

حدثني نفسي ذات مرة ان أُبين له نموذج العقل في
اسيره وانه يشبه سيرة تلك المجالس الشورية (البرلمانات) حيث
تجتمع الفرائز احزاباً تتداول ثم تقرر حكماً واحداً هو الارادة
الاجتماعية لقوى الجسم الانساني كله وان الالفاظ التي وضعت
الخ ولكنني امسكت عن اتقاذ ذلك اذ لا فائدة من
محاولة اقناع من كان على شاكلة

من ذاك الحين شعرت بالسأم وخور العزيمة كأنني كنت
أحاول ما لا ينال . لم يبق امامي الا ان اكرر عليه نظرية
« الدترمينزم » فقرة فقرة على نحو ما هي موضحة في الكتاب
وهذا من العبث بلا ريب لانه قرأه ولم يجد فيه ما يقنع كما
يقول .

كان يجادلني وهو يتمشى ذهاباً ورجيئة في الحجرة كمن يذرع ارضاً بخطواته او كمن لم يطق صبراً على ألم سنه في انتظار دوره بقاءة الاستراحة في دار طيب الاسنان ثم حباني اخيراً بهذه العبارة

— اما ما بقي من كتابك فلا بأس به الا ما حاولت ايضاحه من جهة المسؤولية فلا اوافقك عليه ولن اوافقك أبداً بل الا صوب ان تعترف معي بفساد هذه النظرية الساقطة فقد رايت كيف امكنتني وان لم اطعم على عكسها ان ادغمك على التسليم معي بفسادها »

فما ظنك بهذا الانسان الذي لم يكتفِ بأن عدني أحق اذ اخذت على عاتقي شرح تلك النظرية بل اتلني برجوني ألا أغفل عما عنده من حدة في اثبات ذكائه وما له من القدرة في التهويش علي في المناظرة وان لم يدرس الموضوع ثم زاد فقال :

— لا شك أن اقوالك كلها مغالطات لا تستقيم وما ابغض الحياة لو صح ما تقول . إذن الزمنا ان ننكر استحقاق الجزاء على اعمالنا ولئن صح ذلك لحبطت الاعمال وكانت

وقوعها آخر كل شيء فقلت

— كلا . بل يكون ذلك بدأ لأمور جديدة . مثال ذلك
إذا قلنا ان غرائزنا هي التي تسوقنا فعلينا نحن ان نرقى بالحسن
الى الاحسن ونكبح جماح الردي . فالفضائل اول ما تكون
تكافاً ثم بالتمرين والاستمرار تصبح غرائز متأصلة في النفس والخلق
فكما اننا تقوي عضلاتنا الجسمية السقيمة بتمرينها على الحركة
ومعالجتها بطرق خاصة فيمكننا ان نربي غرائزنا بالعلم والتهذيب .
وأى شيء احسن من ان نعالج الامراض العقلية كما نعالج
الامراض الجسمية فنشرع في فحصها لمعرفة اسبابها وننتى
بمداواتها

لماذا لا نفكر في ذلك مطلقاً ؟ كأن ليس شفاؤها
واقاء وبالها احرى بنا واولى من تعجيل العقاب لمن تسمونه
مجرماً ونسميه مريضاً مضراً . ألا تجد ان ذلك العلاج هو
الضمانة الواقية والطريقة المثلى في تقويم النفوس من غير انتقام
من الضعفاء . ان شل ذراع انسان فاصبح غير قادر على رفع
يده والمدافعة عن نفسه حينما يتعدى عليه آخر . فهل معنى
ذلك انه لا يرى الدفاع واجباً او انه لا يريد فكذاك

المصاب بمرض نفسي يرى طريق الخير والشر ولا يمكنه ان
يختار الا نفع اضعفه ولو تبينه. ألم يكن ذلك حقاً ؟ نعم ولكني
لا ادرى لماذا استمر في محاورتك مع انك قرأت كتابي .
أعد قراءته ان شئت فانك تجد فيه لكل سؤال جواباً . . .
فقال :

- أنا ، معاذ الله فن تظني لاقرأ كتابك ثانية ؟
- اذن كلف خاطرك اقامة الدليل على انك حر وان
ارادتك وحدها كافية لان تجعلك تفعل ما تشاء في اية
وقت من غير ما سبب
- املزم انا بالبرهنة على ذلك ؟ وكل ما في الامر اني
انتقد نظرياتك واكرر لك القول انها في غاية السخافة وليس
من الضروري ان أقول لك هذا وانا قادر على ان آتيك
بنظرية مثالا او على ان اقارئك برهاناً يبرهان فانه يمكنني
القول بأن هذا الخذاء او ذلك لم يصنع جيداً وانه مضر بالقدم
او غير مضر وانا غير قادر على عمل مثله ولا استطيع ان اقبض
على ادوات صانع الاحذية فأريه ما كان يجب عليه عمله
- مبلغ جدلك انك تزعم ان هذه النظرية سخيفة وارى

من اسئلتك انك لم تفهمها وتأني ان تقرأ الكتاب ثانية او
ان تبرهن على صحة ما تقول فتبين مواضع الضعف او السخافة
فيما كتبت فما حيلتي فيك ؟

وهنا قاطعتي السيدة « بيرت » بعد ان لبثت مصفية لما
قصصته عليها فقالت :

— انصح لك ان تم كتابك وتنشره بين طبقة المتعلمين
والطلبة من امثالك فلن تعدم من يفهمونه ويحلونه المحل
اللائق به . ولو كان لك من كل مائة عشرة يجذون عملك
لحصلت على مبتغاك وذلك خير من ان يظل في حيز
الخفاء

ثم ان كان ابن عمك لا يفهم ولا يريد ان يفهم
نظرية فلسفية فلا ينبغي ان تتخذ ميزاناً لتقدير ما عزمت
عليه ولا دليلاً ان كل الناس على شاكلته .

لم أشرف بعد بمعرفة هذا الشاب ولكني لا أتردد في
تخطئتك اذ اعتبرته نموذج الذكاء لحصوله على بضع شهادات
فالنجاح في الامتحانات لا يدل على نصيب المتحن من
الذكاء الفطري والبداهة وانما هو دليل على الصبر

لا غير (١). وبعد ان سكنت برهة قالت
واني لا احسب نفسي من اقل الناس فهماً ولقد قرأت
قسماً كبيراً من كتابك فكنت أجده واضحاً جليلاً
فقلت لها :

— من العبث ان تتكلمي الآن عن هذا الكتاب طويلاً

« ١ » نعتقد تلك السيدة ان العلم الذي يحصل بالصبر على الدرس
والتمارين العملية شيء والذكاء الفطري شيء يد أنها لا تذكر ان العلم
يساعد على نمو الذكاء وتقويته . فترى ان كثيراً من المتعلمين ضعيفو
الذكاء بالرغم مما حصلوا عليه من علم كما أنها ترى كثيراً من عبر
المتعلمين والصوص اذكاء للغاية . نعتقد تلك السيدة ايضاً ان
الذكاء والتطلع في بعض العلوم لا يؤهلان لفهم كل علم او لفقد ما
يكتب فيه فأكبر قضائي مثلاً غير قادر على انتقاد كتاب في
الرياضيات او الطب وهي ترى ان الفلاسفة علم مستقل عن علوم
كثيرة كأدبيات اللغة ونحوها بالرغم من خلط بعض الشبان في
هذا العصر نظرياتها بعلوم لا تتعلق بها ولا أنها تتوقف على دراسة
علوم اولية ضرورة كالمباني لها وليس الغرض من ذلك ان المتعلم
ايا كان لا يفهم ما يقرأ من كتب الفلسفة ولو سطحياً ويستفيد مما
يمر به من نظرياتها . وانما الغرض انه لا يكون قادراً على تفهدها
او تفهيد شيء من دقائقها فهذا مستعص على غير من درس الفلسفة على
قواعدها الخاصة ولو كابر المدعون .

فقد احرقته بعد ان استولى الفتور على عزمي

— هذا جنون

— سبق السيف العذل . وانا اشكرك على عباراتك اللطيفة المشجعة . فما مضى فات وقد أكلت النار ما كتب وما عندي الآن الا ما كتبته في مذكرتي اليومية منذ منغني المرض من الخروج . وساجتهد في تكوينه وترتيبه من الان لا نشره حين الفرصة احتراماً لنصيحتك ، وليكون أول خطوه لي في سبيل التأليف

فقالت السيدة :

— اشكرك . زانى لواقعة من احترامك لوعدك هذا ايضاً وانك ستمضى في طريقك المرة غير متأرباً كما كان من ابن عمك الذي لم يالف على ما يظهر التلطف في المناقشة (١)

« ١ » ان ابن عمي هذا شاب لبق ولو عزبت مزاياه على بعضهم فقد يكون ذلك نتيجة حبه العزلة وكثرة انفراده . فقلما يعاشر الناس وهذا ما يجعله يفضلهم على ما ارى في قهقري كثيرة . لم تفسد طباعه التقاليد العرفية ولم يالف الكذب الاجتماعي الذي يضمار اليه من يعاشر الناس لمداراتهم . فهو صريح بمعنى الكلمة كمن فطر على السابقة البدوية . لا يخشى لومة لائم ليقول ما في ضميره في وجهه أيا كان من

ثم انصرفنا عن المحادثة في موضوع الكتاب الى حديث آخر لم يفتأ الجدل فيه لان شريفاً كان في اثنائه يوافينا بشيء

غير ان يعمد الى كناية او تهريض في كلامه . وكثيرا ما سمعته يقول لبعض السيدات : شكاك يا سديتي قبيح كشكل الكلب الانجليزي ([Cat] dog) . ايها السيد . ان قولك هذا دليل على منتهى الغباوة الخ

ابن عمي صريح يقول للناس ما يخطر بباله ويتعنا خوف الانتقاد ومراعاة التقاليد مؤاخذة الصراحة . فكنتا بصاف الفبيحة من السيدات والنية منهن والخارجة عن حد اللباقة ولا يجراً ان يقاضا بالاحظنة . انه لم يالف الصراحة . هذه احدي من ايا ابن عمي وان عدها بعض اسدقائنا من رذائله

ان صراحته المتناهية تدعوه ليقول ما اعتدنا ان نجهده غريباً بيد انه طيمى في الحقيقة . فكثيراً ما يحدث الآكلين معه على المائدة في امر معدته وقابليتها للطعام والهضم واختلافها في ذلك احياناً وما ينشأ عن اأكولات من اسهال او امساك ومن ان رأتخته لا نطاق الخ من الكلام الذي لا يخف على الآذان سماعة .

ان اسدقاءنا يسمونه (بالدماغ) كناية عن انه منهم ولانه كما يقولون يأكل في الافطار من الزبد اكثر من الخبز وانه يأكل على العموم بطريقة تنفث الانظار . هذا كلام مبالغ فيه ولو ان ابن عمي يحب الزدة حقيقة . انه شاب يسد على ما فيه من صفات حميدة واصحابنا يحمدون له حتى على الاكل ولو انهم يتظاهرون بخلاف ذلك لانه يمتاز

من طرفه الادبية تجلب لنا الضحك والسرور . ولم يطل الزمن حتى جاء وقت الظهر فودعاني بعد ان زوداني النصيحة لأعتنى

عهم بميزة ثمينة قد تبعد عن ادراكهم . انه اختصاصي (ارنست) **Artiste** نعم ارنست في الاكل . ان الارنست رجل قد نمت وارتقت احدى حواسه فجعلته قادراً على ادراك الفرق الدقيقة التي ينوب عنها فهم الناس الا قليلا وجد فيه منذ نشأته استعداد خاص يؤهله للتبوع في عمل ما

فالصور ارنست لانه رجل ارتقت حاسة نظره الى درجة يمكنه من ادراك التنبس بين الاشياء بدقة وبين الواسا فلنوضح الذي ارى فيه اللون الاخضر مثلاً ارى هو فيه عدد أعظما من النقط الصغيرة التي كونه من الازرق والاصفر الخ

وكذا المغنى والمواع بالسماع (السمع) فكلها اختصاصي (ارنست) في تمييز الاصوات والنفحات حين امتزاجها في توقيع لمن وسط عزف الآلات وادراك أي شذوذ دقيق يقع من صوت أو آلة الخ

فابن عمي شاب ارتقت عنده حاسة الذوق لدرجة تمكنه من ادراك الفروق الدقيقة بين الاطعمة فيعرف ما تنقص وما زاد في تركيب أي لون او صنف من الاطعمة وما كان يلزم اضافته او تخفيفه ليكون الذ طعماً مما يكون قد قدم اليه ولعمري انه ما وصل الى ذلك الا بعد ان حرن لسانه على تقدير الطعوم على تنوعها ونجشم عناء كبيراً في سبيله

بصحتي والامثال لما أشار به الطبيب



فهو يتلذذ بكل صنف بأمعان لا كما يأكل عامة الناس مما يوضع امامهم
وان احسوا بشيء من النقص او الاتقان لا يدركون صيبه بدقة . فهو
بذلك « ارتست » في الاكل ممدوح على ميزته بالرغم مما يقول الاصدقاء
فيه ولا فرق عندي بين من يمتاز بميزة في اللسان او الاذن او النظر
او الصوت .

الجزء الرابع

فارقني المرض وشرعت صحي تعود الي وسمح لي الطبيب
بالخروج ثم جاءني محمود يدعوني للذهاب معه كي تناول شاي
المساء بفندق « الشاطي الجميل » فأجبت وسرنا الى هناك ولم
يكن الجو يومئذ زاهياً بل كان وجه السماء مكفراً تمشاه هنا
وهذاك سحب نحاسية اللون ضاربة الى السواد . وبينما كان
محمود يسرد لي ما ينوء عمله في عامه اذا قبل علينا ثلاثة
اصدقاء بينهم ابن عمي وسرعان ما سألونا
— ماذا تعملان هنا

— « نعمل ما جئنا من اجله » ثم صاح محمود بعلام الفندق
ليحضر لهم ما يريدون من الشراب . واخذنا نتجاذب أطراف
الحديث جذلين مسرورين وكل يجتهد ان يأتي بنكته مبتدعه
لبضحك رفاقه الذين كانوا يقهقهون اكل ما يقال حتى التافه
لتفاهته ثم مال الي احدهم وامرني اذني ما معناه :

- يظهر ان صاحبك عبد السميع اعتناه شيء من الجنون
— لا ؟ من انباك هذا ؟ لم ار عليه سيمى الجنون ؟
— يقال انه شرع يترجم احد كتب الفلسفة فذا صبح
ذلك فهو الجنون بعينه
— الذي اعرفه ان عبد السميع ماهر في الترجمة . ولكن
ما رأيك انت في الكتاب الذي سترجمه ؟
— ليس شيء
— هل قرأته ؟
— نعم قرأته ولم أجد فيه فائدة ولم أدر الغرض منه
— الان عرفت السبب .

دهشت والحق يقال مما استنتجته محدثي من ان الكتاب
غير مفيد لانه لم يفهم الغرض منه وان عبد السميع مجنون
لانه يترجم مثل هذا الكتاب . وانه هو العاقل لانه لا يشتغل
ويكتفى بالحكم على الكتب ومترجميها . ولكنى لم أجد بداً
من موافقته لئلا يعدني مجنوناً كعبد السميع
ثم سأل ابن عمي عبد السميع عن الكتاب الذي عنى

ترجمته كما يسأل أحد الباشاوات المثربين فلاحاً أمياً عن
خرافاته

ولم ارد الدخول في سلك حديثهم حذرا من مشاغبة ابن
عمى لان هذا ديدنه مع كل من لا يرى رأيه وكل من جاء
برأي جديد بالنسبة له وبعد ذلك من المضحكات . لذا كان
ينظر الى عبد السميع نظر استغراب ممزوجا بالشفقة كما
ينظر الى الطفل الصغير يتعرض لما لا يأتيه العاقل . ويخاطبه
بعضمة في كل ما يوجه اليه حتى في المواضيع التي لم يسبق له
البحث فيها وبعد حديث طويل ختم كلامه بقوله

— اما الفكرة فلا بأس بها واما الترجمة فقد بقي علينا ان
نعرف ما اذا كانت جيدة ام لا ؟ ولقد خطر لأحمد قبلك
خاطر اقرب الى الخيال منه الى الحقيقة فاخذ يتسلى بتلخيص
نظرية فلسفية وبعد ان برهنت له على فسادها تركها واظنه
أحرق كتابه . اليس كذلك يا احمد ؟

-- نعم قد كان ذلك

فقال عبد السميع مستغربا ناظراً لمن حوله وقد زاد عددهم
بنجيء غيرهم من الشبان.

— ماذا تقول ؟ ؟

فاجبته

— قضى الامر وكان ما سمعت فقد حرقت ما كتبته لاني
لم اوفق لارضاء ابن عمي من جهة ولم احسن بيان الموضوع
من جهة اخرى كما يقول . ولكن ما الباعث على الكلام في
ذلك الآن . دعونا منه . هذا الشاي ردىء فما قولكم فيه ؟ ؟
قلت ذلك لأغير مجرى الحديث ولكنى حاولت عبثاً
فقد بهت جميع الحاضرين حين سمعوا اى اكتب في موضوع
فلسفى بل عجبوا ان رأوا شاباً منهم كانوا يهدونه متعلماً ذكياً
رشيداً لدرجة ما يقول بقولهم ويلهوا لهوهم ثم يجرأ على الاشتغال
بتأليف كتاب لا سيما في الفلسفة . لم تكن دهشتهم من ذلك
لتهمنى انما المهم اذ ذاك الا ادخل من جديد في جدال مع
ابن عمي الذي يعرف منى واعرف منه اننا لا نتفق ابداً على
رأى في اى موضوع فما تكلمنا في امر عائلى او وطنى او بحث
ادبى او اخلاقى او في مسائل الزواج والازياء الا ادى ذلك
الى مناقشات عقيمة طالما انتهت بالنفور والمخاصمة . وقد
كان ما خشيته . فانه لم يعبأ بحسمي الحديث بل اخذ يفيض

عليهم شرح موضوع الكتاب كما شاء مسخفاً بلا دلة ومع ان
مئات الردود على ما زعم كانت ماثلة امامي لم ارَ فائدة من
مردّها فان بعض الحاضرين سمعوا الكثير منها والبعض يجهل
الموضوع . فزاده سكوتي ابتهاجا وتشجّماً وبعد قليل
سأله احدهم

— ما ذلك المذهب الذي شغلكم الجدل فيه من مدة ...
مذهب التقيد ؟

لم يخطر لي من قبل اني سائررد يوماً ما في الاجابة على
مثل هذا السؤال ولكن ميلى الى الكلام فيه وقتئذٍ تحوّل
سأماً وضجيراً . فاجاب ابن عمي وهو يضحك
— سل احمد ينيئك

فنظروا اليّ جميعاً والتبسّم يعلو شفاههم فاجبتهم
— اصحاب هذا المذهب يعتقدون ان اعمالنا واقوالنا موقوفة
على مؤثرات تعمل في انفسنا وتسببها بالرغم منا فلا تقوي على
نحويل نتائج المؤثرات الطبيعية او ايقافها . (او كما يقولون هي
رد فعل لتلك المؤثرات لا يمكن الانسان ان يتقيها ما
وجدت المؤثرات)

ذلك ان قوى المؤثرات تجتمع وتمتزج فتكون قوة نهائية هي ما نقوله او نعمله . اما وجداننا فلا عمل له الا مشاهدة سير المؤثرات ونتائجها فلا يسيرها ولا يهديها . فاذا فحصت اي حركة من حركاتك كأن تقبض على شيء بيدك او تسعى نحو غرض تطلبه فانما انت في ذلك تطيع جملة دواعي تحملك على عمله لم تكن لك بد في ايجادها حالا . ففي الوقت الذي تظن انك عزمت فيه على امر بمحض ارادتك تكون تلك البواعث الداخلية بواعث المؤثرات قد تبادلت الاراء في ضميرك وقررت بعد المداولة أمراً هو ما تظن انك قررت به بمحض ارادتك وليس لك من الارادة الا موهومها

فقال احد الحاضرين

— ان هذا المذهب الذي تسميه الدترمينزم الآن ما هو الا مذهب القدرية القديم عند العرب قد أُفرغ في قالب جديد بما يناسب الوقت الحاضر . (١)

(١) لم نعر هذا الاعتراض ادنى التفات لأن حصل مذهب القدرية مشهور لا يعزب عن مطالع ومبجته ديني محض وهو مبين لمذهب الدترمينزم الذي هو عبارة عن نظرية علمية لا علاقه لها بالدين كما تقدم في صدر هذا الجزء

فصاح ابن عصى قائلاً

— أرايتم فساد دعواه؟ وإن كلاً منا في استطاعته أن يبرهن
على فسادها . واقرب ما أثبت به أني مطلق الحرية والتصرف
في أن أقوم الآن فأخذ عصاي وطربوشي واذهب الى المدينة
فاطوف أرجاءها لا شيء سوى أن ذلك يعجبني
فقلت له

— أنا لا أستطيع اقناعك ما دمت تسائلني ثم تقطع حديثي
كلاً . هممت أن أجيبك . فالاحسن أن شئت أن تغير
مجرى الحديث
— لماذا ؟

— لأن ذلك خير لنا . ولكن من جهة أخرى ارى الفرصة
سائحة لأن تقرر مبدأ لا نخالفه بعد وأن نوظف الجرح قبل أن
يلتئم على القذى . أنا لم نتفق يوماً في رأي ولم تنتهريتنا
مجادلة الى متوج فلندع الجدل جانباً فنجنب سوء التفاهم
والك علي أن أبذل كل ما أستطيع في هذا السبيل فلا أعرض
لرأي تبديه . ويقنعني منك مثل هذا الوعد

ان المذاهب العلمية الحديثة عرضة للتنقيب والتغيير لانها

مؤسسة على فروض ما زالت تحت رحمة اكتشاف جديد
يدحضها فلذا ترى من يتشبث بمذهب من تلك المذاهب
لا يجزم بصحته البتة خوفاً من ان يعرض نفسه للسخرية حينما
ينقض هذا المذهب . اما انت فتري ان اراءك قائمة على
اساس متين لا تقبل الجدل واليك مثلاً ما تردف به دعايريك
كلما ابدت رأياً او اوضحت مذهباً او طرأ لك اظهار فكرة فلا
تفتأ تكرر قواك : العقل الراجح . او الرأي الصواب . او ان
تقول : يكفي المرء ان يكون له شيء من الذكاء ليعتقد كذا ..
انك احتكرت كل شيء راجح وامتزت من بين كل
الناس بصواب الرأي ولا اقول ذاك مازحاً فان اعتقادك
بارجحية كل ما هو لك مطلق لدرجة لا تسمح لك بالتروى
والتحميص لان اتروى هو سؤالك نفسك ومناقشتها وانت
لا تشك في الثقة بها . فأراؤك وافكارك تظهر لك دائماً كاملة
مهذبة لذلك توردها بكل ثقة وطمانينة دون ان يخطر على بالك
ان هناك من يخالفونك في الرأي

مالك تترك الحقيقة - حقيقتك - تسقط من فمك غير
حاسب حساباً أنها ربما سقطت على أناس فاصابتهم بجرح ؟

أما لغيرك احساس يولمه ان يجرح ؟ . اذا وطئت رجلك قدم
آخر في طريقك فقد تؤلمه كثيراً وان لم يواخذك لعلمه انك
لم تسئه قصداً أو انك تجهل موضع قدمه . فرجائي اليك ان
تلاحظ قدمي كي لا تظاها وسألاحظ ذلك نحوك

ان هذه النظرية ليست لي وتعرضي لشرحها لا يستلزم
قولي بها وما نقلت اياها بموجب اعتناقي مذهب اربابها ولكن
ذلك ليس بما نعي من احترام آراء من عنوا بمباحثها وتعبوا
في تكوينها

قال لي احدهم

— لا ينبغي لك ان تستاء من المناقشة أياً كان اسلوبها فانما
نناقشك كيما يتيسر لنا ان نفهم النظرية جيداً

— لست مستاء وانما أفضل سد باب المناقشة في هذا الموضوع

مع ابن عمي خاصة للاسباب التي بينتها قبل
ثم خضنا في مواضيع شتى حول ما يقع في مجالس اللهو
الى ان قال لي احدهم

— الا تستمر في شرح نظرية الحرية ؟

— كلا لنتركها الآن جانبا

ثم سأل احدهم صديقنا - ج

-- من تلك السيدة التي كنت متأثراً معها على شاطئ

لبحر امس ؟

فاجابه ج

— هي سيدة سويسرية عرفتني من زمن

— ليس لك ذوق سليم فانها ليست بحسنة

— شيء غريب . وما على اذا لم تكن حسنة . ان السيدة

لتي رأيتها اديبة لدرجة يندر وصول كثير من السيدات بل

من الرجال اليها ولقد امضت وقتاً البارحة في صحبتها وسمعت

حديثها فأبت بفوائد جمّة

— هذا لا يكفي

— قد لا يكفي مثلك اما انا فأؤكد لك ان ذلك يكفي

السيدة المبهذة المتعلمة متى كانت طيبة الحديث لا يمل

لانسان ولا يضجر في حضرتها وان لم تكن ذات حظ من

لجمال الذاتي : ولا احتاج لى كل مسامرة اديبة ان احادث

روساً قد استكملت زينتها . على ان تلك السيدة لم

كن دميمة

— هذا غير صحيح فلا تحاول ان تفهمنا انك كنت مع
سيدة جميلة

— ويحكم لا أقول لكم ذلك تفاسيراً وأكرر القول بأن
جمالها لا يهمنى فالصادقة وحدها هي التي جئتني ولو كانت
تلك السيدة دمية لما غير ذلك شيئاً من قصدي وكنت
أملكث معها كما فعلت بالأمس قائماً منها بما أوتيت من سماحة
الخلق وعذوبة الحديث فيما ترويه من أديها الجم فضلاً عن
أن لي صديقات كثيرات أحرص على صداقتهن ولا حظ لمن
من الجمال إذ لا دخل للصداقة في ذلك

— أسلم لك انها شهية الحديث ولها من المواهب الشريفة
ما ذكرت ولكني لا أسلم لك انها حسناء
— لست على رأيك يا أخي

— هذا دليل على فساد ذوقك لاننا كلنا رأيناها واجمعنا
على دمامتها

— وهل هذا دليل على صحة ما تقولون ؟ امر الحق لو
كنت لا أعرف تلك السيدة لكفاني حكمكم عليها بالدمامة
ان أعرف انها جميلة لتمكني من استقصاء اطباكم

وما الطف حكمكم على ذوقى بالفساد لاني لم اكن على
رأيكم . يا عزيزي انك اطلقت لنفسك العنان في معارضتي
هذا المساء في معارضتي واعل ذلك لشدة شغفك بالمناقشة والشتم
كنت اشك فيما عزاه اليك احمد مما دعاه الى حسم
المناقشة بينك وبينه في نظرية التقيد والان صرت على يقين
من صحة قوله وصواب خطته . الا تدرى ان الالوان والاذواق
غير قابلة للمناقشة والجدل فاننا اميل الى نوع من الفاكهة
كالجوافة مثلاً وانت لا تميل اليها وتعافها نفسك فهل يمكننا
ان نتباحث في ميلى اليها وبغضك ايها لعرف اينا مصيب ان
الذوق في ادراك معنى الجمال يختلف في الاشخاص باختلاف
البيئات والتربية . ويختلف في البيئة الواحدة باختلاف الميول
والعواطف والزرعات النفسية وما ألفه المرء من مبدل نشأته .
سئ زنجياً أن يجد الجمال في امرأة يجيبك : في زنجية لونها
اسود فاحم دسمة الآهـاب ذات عـينين ضـيقتين وشفتين عظيمتين
ضخمة الخصر والذراعين والرجلين الخ . وسل هذا السؤال
بياناً او صينياً يجيبك امرأة قصيرة خفيفة اللحم صغيرة القدم
ذات عـينين ضـيقتين منحـرقتين قد شدتا الى فوديهـا

فاذا كنت ترى الاذواق والالوان قابلة للنناقشة فنناقش
ما شئت . برهن لي اذن ان كلا من الزنجي والياباني والصيني
وغيرهم من مختلف الاجناس مخطيء في ادراك معنى الجمال
بالنسبة لشخصه ولما يلائم ذوقه . لا أخال لديك برهانا على
خطائهم اكثر من ان ذوقهم يخالف ذوقك ورأيهم لا يتفق
مع رأيك حيث تجد الجمال .

— مالى وهؤلاء ؟ لا داعى للفلسفة في كل شيء . اني اقول
لك باختصار ان تلك السيدة التي رأيته معها بالامس
قبيحة الشكل

— الم تكن مناقشتك هذه محض عناد ؟ والا فماذا وجدت
قبيحا في تلك السيدة وانت لم ترها الا حين مررت بنا ؟
— اؤكد لك اني رأيته لدرجة كافية للحكم على ملامحها ولم
ار فيها حسنا

— وارجئاه عليكم ايها البسطاء . ألا تدرون معنى لمجالسة
السيدات غير الحب والمغازلة . ام تظنون الا جمال الآ في
ألكم البادئات للتفقتات الناصعات الياض الحمر الحدود اللاتي
كانهن صور من الشمع او الخشب قد طليت بالابيض والاحمر

وكسبت بالحري الزاى الالوان ؟ فاذا رأيتم احدا هن مثلتم
امام هيكلها الضخم مبهوتين قاصرين عليها معنى الحب ورائع
الجمال . ام تريدون الا يتسلطن حب على قلب الا اذا كان
لمن تحبون ولمن ترونه جميلا فلا يكون لأمرىء ان يحب
غيره ؟ طالله انكم لواهمون مختولون . والحب اعمى كما يقولون
ينفذ سلطانه الى القلب من غير ان يستأذن احدا وهذا ما جعلك
لا ترى الجمال الا فيما اعماك حبه . على انه ان كان للراء ان
يجب هاته او تلك فليس له ان يستقيج من كان جميلا ... وان
استقيجه فليس جعوده الجمال بضائر الجميل ولا مقلل من قيمته
والجميل يظل جميلا رغم انف المكابرين وان لم يجد من يعرفه
— انك تريد من هذه المرافمة الطويلة تفهيمنا انك تفردت

من بيننا بسلامة الذوق لاستحسانك تلك السيدة وحدك
— كلا لم اقصد ذلك ولم اكن لأدعى التفرد بسلامة الذوق
ولكن لأبين ان الانسان قد يخونه النظر كما انه قد يخطئ
الرأى وان الرجوع عن الخطاء اولى من الاستمرار فيه . سأقص
عليكم قصة اوضح فيها كيف تبين لي اني كنت مخطئا يوما
ما فاسمعوا : منذ اربع سنين كنت في سويسرا وهناك تعرفت

بشباب نقاش حسن المعاشرة وبعد اسبوع من معرفتي اياه
اخبرني انه سيضطر قريباً ان يبارح سويسرا لأنه مكلف
من قبل احد كبار الاغنياء بنقش تمثال من مرمر يمثل
النصف الأعلى من سيدة حسناء ليضعه حلبة في مكتبة .
فسأته لماذا لا تصنعه هنا ؟ فقال اني غير قادر على العثور في
هذا البلد بحسنة تسمح ان تكون نموذجاً انقل عنه صورة التمثال
فقلت له . يمكنك ان أقدمك الى سيدة بارعة الجمال اعرفها
هنا تقبل ان تكون نموذجاً لتمثالك المطلوب (١) فرضي النقاش
بذلك ولما كان ان قد قدمته الى تلك السيدة بعد استئذائها فسر
مروراً عظيماً وظن أنه ظفر بضائته المنشودة واشتى عزمه عن
السفر حينما صرحت له بقبولها ان يتخذ عن صورتها تمثالا .
وبالضرورة لم أشر عليه الا وانا متصور ان تلك السيدة غاية
في الجمال

وبعد ذلك باسبوع قابلت صديقي النقاش فألفيته غير
منشرح وانه أزمع السفر فسأته : لماذا ؟ ألم تسمح لك السيدة

(١) ان راوي هذه القصة في مناقشته هو الشاب ج وهو مسيحي
ولا يستقبح في عوائدهم وقبور مثلها ولا روايته

بنقل تمثالك عنها بعد ؟ فقال :

— بلى انها لم ترجع في وعدّها ولكنى وجدتها غير جميلة
بعد ان دقت النظر في ملامحها . ولقد أخطأ نظري اذ
ظننتها لأول وهلة في منتهى الجمال . والذي غرر بي في
أول الامر لون جلدها الرقيق الابيض المشرب بالحمرة ووميض
عينها ولون شعرها الباهر وخفة روحها . فقلت له : اذن فإى
شيء لا يعجبك فيها . فقال : الذي لا يعجبني منها تقاطع
وجهها التي تظهر قبيحة في النقش على المرمر ولا اظنك تجهل
ان التمثال الذي ينقل عن ملامح انسان غير متناسب اعضاء
الوجه الى درجة تبلغ حد الجمال لا يكون جميلا لان الالوان
وبريق البصر والشعر اللامع التي تزين الانسان الحى لا توجد في
الحجر الجامد وهذه السيدة اذا جردت من هذه الاشياء
لا يبقى للجمال انرفيا لان ارتفاع انفها ودقنها وبروز وجنتيها
وغور عينيها كل ذلك لا يظهر للعين الا بالتأمل والاستقصاء
لاحظ ذلك بنفسك ان شئت عند ما تراه بل دقق النظر في
ملامح اية سيدة تحسبها جميلة فتظهر لك عيوب كثيرة كانت
تخفي عليك . اني ابحث عن الجمال الذاتي في وجه متناسب

الأعضاء لا يستمد بهجته من عين ولا لون ولا من قوة الحياة
وبعبارة أخرى البحث عن سيدة جميلة بالمعنى الحقيقي لا سيدة
زاهية اللون ناعمة الأهاب خفيفة الروح ولا اجد ذلك متوفرا
في هذه وان تبرعت ان انقل التمثال عنها فلا مندوحة لي عن
السفر حتى اجد ضالتي ١

زاد دهشى عندما استمر النقاش يشرح الجمال فقال :
انا معشر ارباب الفنون الجميلة اسنا كباقي الناس في تقدير
الجمال ونقد الحسان فالسيدة ذات الجلد الرقيق النضر يفتتن
بها غيرنا وان وجد فيها بجانب ذلك بعض العيوب . اما
نحن فنعتبر ذلك امراً ثانوياً بالنسبة لمعنى الجمال ولا يهمنا قبل
كل شيء الا حسن الشكل والهندام وتناسب الاعضاء فوضع
نظارنا شكل العين والفم والانف والوجنتين والدقن والرقبة
وصغر القدم ودقة الكعيبين الى آخره يلفت نظرننا ذلك اكثر
مما يلفت اللون وبهاء الجلد سوانا فانهما قد يزولان
لمرض بسيط . ورب حسناء بستار ألوانها وتصنع الرشاقة
لجسمها تذهب نضارتها وتبدو قبيحة اذا اعتل مزاجها ولو
قليلا . وعليه ترى ان السيدة الكاملة الجمال نادرة الوجود»

وما زال النقش في حديثه عن الجمال مبرهنًا لي ان
الرجل كبيرًا ما يخطئ في حكمه على جمال النساء . ثم اردف
قائلًا : ان أمير صانع لا يجزم بجمال سيده الا بعد ايمان
النظر وترديده ولا يزال في شك من صدق نظره مخافة ان
يخدعه رونقها الظاهر وما تبديه من التبرج « ومن ثمة أخذت
عنه درسًا وافيًا في فهم الجمال

فإذا كان أمير مصور لا يجزم بجمال ذات او بنفيه
عنها الا بعد طول النظر فكيف بكم تحكمون بالقبح على من
لم تروها الا لحًا . بيد أكرر القول ان جمال تلك السيدة
أمر لا يهمني البتة . وما استغفني للذهاب اليها الا التشوق
لسماع حديثها والاستفادة من ادبها
فقال له احدم :

— اكثر ما رويت عن النقاش صحيح
وقال آخر :

— الحق ان الجمال كيت كيت . . . الخ
مبدأ ما تضمنه حديث ج . وهكذا وافق الباقر على
ما قاله في الجمال الا مناظره فقال له ج :

— يعز علي ان يتحول عنك رفقائك وتنفر بالممارسة
على خلاف عادتك . والمهمود فيك ان تكون على رأيك
دائماً وانت على رأي الناس

— انا لم تكن تلك عادي . . . ولا يهمني تحويلهم الى
رأيك ولا تمسك برأيك في الجبال وفي استطاعتي ان
أستمر في مناقشتك الى الغد وانت لا تقدر على اقناعي
برأيك

— اما هذا فامر محقق

الجزء الخامس

محاورات في مسائل متنوعة

بين أ و ب

﴿ الصراحة ﴾

أ — قلت امس لحسن بك أن الرواية التي مثلتها امامكم

الصور المتحركة جميلة

ب — عفواً يا سيدي . هو الذي قال ذلك

أ — ولكنك وافقته عليه

ب — نعم

أ — قلت اليوم امامي لمحمد ان تلك الرواية مملة ثقيلة

على النفس

ب — عفواً هو الذي قال ذلك

أ — ولكنك وافقته



ب -- نعم وافقته

ا -- ما معنى ذلك ؟ ألتحقن تلك الرواية أم لا ؟

ب -- هذا شيء يعنيني

ا -- هذا صحيح ولكنني اعجب من تناقض يبدو منك ولم ادر له سببا لما اعهد من صراحتك وصدقك وانك تبجهر بما يمن لك مهما كان مخالفا لميرك فما الذي غير طبيعتك وصرفك عن عادتك اذ من المحال ان تجد الرواية جميلة وعملة ثقيلة على النفس في آن واحد ؟ فالطربوش اما على رأسك واما ليس عليها

ب -- ثم ؟ ...

ا -- اريد ان اعرف سبب تناقضك

ب -- ما الذي كان يجب علي عمله ؟

ا -- ان تبدي رأيك الخاص بصراحة وتبجهر بما وجدت

عليه الرواية

ب -- لم يطلب مني ابداء رأي فيها

ا -- اعني ان الواجب كان يقضي عليك بموافقة احدهما

فقط لا ان تكون على رأيين متناقضين في وقت واحد

ب — ما الفائدة التي كانت تنتج من اتباعي ما تراه واجباً ؟
وهل اعتقادي الخاص في الرواية كان يغير من نظر محمد أو
حسن إليها ؟ أفترف سبب رؤية أحدهما لها جميله والاخر ثقله
أ — لا

ب — أنا كذلك أجهل السبب الخاص ولكن لا بد لذلك
من اسباب كثيرة . فما يدرينا ان المناظر التي تتكون منها الرواية
تشبه ولا شك مناظر قضى فيها أحدهما اياماً لذيذة وربما كان
يغال الرواية يجتمع معه في بعض صفات او انه يشبه صديقاً
له وهذا ما كان يحمله ان يجد الممثل خفيف الروح مسلياً .
ويمكن ان بعض وقائع الرواية تشبه بعض اطوار صرت به
او بعض مواقف صادفته في مترك الحياة وهذا وحده كاف
لان يرى تلك الرواية جميلة ولا يخفى ان مثل هذه الاسباب
كثيراً ما تتسلط علينا وتبطلنا نحكم على الاشياء بالحسن دون
ان نشمر . فلو جاهدت ان اثبت له انه مخطيء في حكمه وان
مضمون الرواية التي اعجبهتته مخيف وان البطلة لم تجد القيام
بدوورها . . . لو جاهدت ان اثبت له ذلك لكنت اغبي
الناس واثقلهم على روحه . ان التي رأيت منها ذلك قد تكون

راقته حركاتها وبسماتها لأنها تشبه ذات قرابة منه أو صلة كما
ان الذي يجد الرواية سخيفة مملة لا بد ان تكون لديه اسباب
كثيرة حملته على استقبحها ومن العيب معارضته ليتحول عن
رأيه ولو كنت مكانه لرأيتها بعينه . ومن الجائز ان محمداً لم
يسترح في النوم الليلة السابقة على مشاهدته تشبه الرواية او انه
لم يهضم جيداً ما أكل يومئذ فأثر ذلك على مجموعته العصبي وجماعه
عبوساً لا يرضيه شيء يميل ان يرى الاشياء رديئة اكثر
منها حسنة

١ — كأنك تقول انه لا يجب علينا ان نعارض احداً في
ما يرى اذ توجد اسباباً كثيرة تحمل المرء على مخالفة سواه
٢ : — هذا مما لا ريب فيه ولذا تراني لم أجاهد في تخطئة
حكم محمد او حسن على الرواية . اسمع ما وقع من شاعر بلجيكي
مع امرأة احد الوزراء وقد كانت تدعي الشعر والادب
نشر احد الكتاب هناك رواية صغيرة لم تعجب احداً من
الكاتبين الصليبيين في اللغة فاوّل مرة قابلت السيدة هذا الشاعر
بعد انتشار الرواية قالت له . « هل قرأت الكتاب الجديد
لفلان الحق انه جميل جميل جداً . ان هذا الكاتب الصغير ذكي

ولا شك « فأجابها الشاعر باحتشام دون ان يبدو عليه ما
تشعر بالسخرية . » ان هذا الكاتب الشاب ليس بذكي فقط
بل هو نابغة أيتها السيدة لا يعرف الناس قيمته الآن ومن
المؤكد انك قرأته بنفسك ورأيت كيف يصف الحياة . ان
ضعف الاسلوب وقلة الافكار الناضجة والتعابير الركيكة التي
تملأ الحياة قد جمعها في كتابه . هذا هو الكاتب الحق لانه
وقف على الحياة واحس ما فيها فوصفها وصفاً حقيقياً ولم يملأها
بالافتاظ الجزاة والحكم . فظهر بذلك قوة الملاحظة التي ينبغي
ان تكون للكاتب . ان الحياة كما تعرفين أيتها السيدة ليست
مملوءة بالافكار المتينة والعبارات الراقية بل هي خالية عن كل
ذلك منعمة بالسخيف منها والضعيف . فهو من هذه الوجوه
قد أصاب هدفه ولا شك . . . الخ . »

سر هذا الحديث امرأة الوزير سروراً لا مزيد عليه .
أما جميع الحاضرين من الكتاب فدهشوا حين سمعوه اصدوره
من شاعر عظيم ولكنهم سرعان ما أدركوا أنه يضحك من
السيدة أمامها وهي لا تشعر بشيء من ضحكه . لم يشأ هذا
الشاعر مناقضة السيدة لعلمه ان معلوماتها التي سمحت لها

بإستحسان تلك الرواية لا تصل بها الى ادراك ما حوته من
العيوب وإن مداراته لرأيها لم ترفع من قيمة الرواية

١ - أو تقصد ان تضحك كالشاعر من حسن ومحمد ؟

٢ - لا . . لأنهم ليسوا في موقف السيدة ولكنى ظننت

فقط انه من العبث مناقضة احدهما لأنه ربما يكون هو المصيب

١ - انك يا عزيزي فيلسوف

٢ - ياليتنى فيلسوف . انى لم أرزق جرأة لاتيهم ان

أفاجي الناس بما يكونون عليه من رذيلة أو نقص . أتبعد

عن المناقشات خوفاً من ان يعدني الجهلاء جاهلاً والعلماء

سفهاً . فهل تسمى مثلي فيلسوفاً . ياليتنى فيلسوف يملك جرأة

« ديوجين » إذ زاره الاسكندر الاكبر المقدوني وسأله ماذا

يريد فأجاب : لا أريد منك أكثر من ان تذهب من امامي

فأنك حجب عني أشعة الشمس .

المحرّم

﴿ أو الفاكهة المحرّمة ﴾

أ ب : صديقان تأكدت الثقة بينهما وارتفعت الكلفة
فلا يكتم أحدهما عن الآخر سرّاً ولا يخفى منه عورة كما
اقتضت الحال مكاشفته بأمر

مضت عليهما فترة من المراقبة ثم جمعهم المصادفة على

غرة فقال

أ - أرجو يا عزيزي أن تكون في هناء مستمر مع زوجك

ب - نعم ! .. ولكني ...

أ - ما سبب ذلك ؟

ب - لا أدري لماذا أصبحت لا أحبها كما كنت أول

عهدي بزواجها

أ - هذا عارض رقتي وعمّا قريب تزداد المحبة بينكما حتى

تربو عما كنتم عليه في جدة الزواج . وماذا تفعل طول النهار ؟

٥ - اذهب الى بيت خلياتي

١ - ماذا تقول ؟ ألك خلية غير زوجك أم أصابك دخل في عقلك حتى ما تبالي ان تصرح بمثل هذا الادعاء ؟

٥ - لم لا تكون لي خلية وقد اصبحت من حب زوجي في فتور على اني لم اكشف بهذا الامر غيرك . ان زوجي هنيئة فهي تحبني وتظن اني احبها فاردت ان اكون هنيئاً مثلاً

١ - تخاللت امرأة ما قابلتها ذات يوم

٥ - نعم كان ذلك

١ - هل تحبها ؟

٥ - كثيراً

١ - وهل هي تحبك

٥ - هذا شيء اجوده ولكنه لا يمنني من ان اكون سعيداً

١ - كم لبثت في هذا التلث

٥ - من سنة ونصف

١ - أبعد ستة شهور صرت لا تحب زوجك التي كنت

تجن بها جنوناً واصبحت قادراً على حب تلك التي لا تثق بحبها لك سنة ونصفاً من غير انقطاع ؟

ب — هذا هو الواقع

١ — أنا لا أشك ان زوجك أجمل وأذكى وأكثر تودداً من تلك المرأة التي لا بد ان تكون ساقطة غبية دميعة ككل بني تقبل ان تعاشر انساناً في مقابل قليل من المال . ولو كانت جميلة لما انقطعت اليك عمن هو أغنى منك ممن لا يباليون بارتكاب المحرم .

فهل لا غتباطك بعملك هذا من وجه معقول ؟

ب — هذا هو الحاصل ولا تخن ان ذلك بارادتي ثم لا تنس

ان زوجي زوجي اما الاخرى فهي امرأت اجنبية

١ — لكنها تصير بعملك هذا كزوج ثانية غير ان الدين

والاخلاق تحلل لك الاولى وتحرم عليك الثانية

ب — هذا التحريم هو الذي يجعلني احبها « وحب شيء الى

الانسان ما منعه » فهل انت تعزيني بقولك هذا حلال وهذا

حرام كي اتزوجها او اترك معاشرتها ؟ . اني احبها كذلك

ما دامت امرأة اجنبية واني على يقين انها تصبح لا قيمة لها

عندي لو تزوجتها . فمالك لا تدعني أعيش هنيئاً ؟ فهي كالفاكهة

المحرمة على المريض يشتهيها ما دامت محرمة .

أ — هذه افكار صبيانية وتعللك بها وصمة لا يقبلها من كان مثلك خلقاً وتربية

ب — لا تقل ذلك فلو كنت تحبها مثلي وتشعر بهناء كالذي انا فيه لما عدته فعلاً صبيانياً ولا وصمة مخجلة

أ — هذا ما ستره الحبر، عنك ولولا وجودك في حالة غير طبيعية لما شككت في انه عمل صبياني مخجل خصوصاً لمن كان مثلك حديث عهد بالزواج

ب — لمَ ذلك ؟

أ — ان تمثيلك بالفاكة المحرمة ركيك سحيق واسمج منه استثناسك بهذه العبارة المبتذلة « وحب شيء الى الانسان ما منعا »

ب — لا اظنك تدعى فساد ذلك ، وانك لتعرف مقدار شغفك، بفاكة يحرمها عليك طيبك وانت مريض ألا تشتهيها بنوع خاص ؟

أ — ثم ؟ ...

ب — فلو لم يحرمها عليك الطيب فربما كانت لا تخطر لك ببال

أ — ثم ؟ ...

ب — يستنتج من ذلك ان المريض يشتهي الصنف الذي
يحرم الطيب عليه اكله بنوع خاص وبعبارة اخرى يشتهي
الفاكهة المحرمة وهذا لا ريب فيه

أ — جهلك هو الذي لا ريب فيه

ب — ولم ذلك ؟

أ — لانك لا تدري لماذا يكون المحرم احب الاشياء الى
الانسان ولماذا تكون الفاكهة المحرمة محبة الى المريض ثم انت
تتخذ خليفة وتلهو عن امرأتك لا شيء الا انك سمعت ان
الناس يقولون ان المحرم اشهى الاشياء

ب — هل تدعى انت خلاف ذلك ؟

أ — مهلا ! دعني اتكلم . منذ قريب مرضت بمعدتي وقبل
المرض مضى علي سنة لم آكل الخوخ فيها . فذهبت الى طيب
حرم علي أكل اصناف كثيرة منها الخوخ وشدد في تحريم الاخير
علي فمن ذلك الحين اصبحت اشتهي أكل الخوخ جد الاشتياق
مع انه لم يخطر لي على قلب ابان السنة المتقدمة على المرض .

ب — اذن جربت انت نفسك صحة ما اقول

١ — مهلا . دعنى أتمم . اتدري ما السبب في ان نفسي
اشتتهت الخوخ ؟

ب — لانه اصبح الفاكهة المحرمة

١ — كلا لانه حرم عليّ شرب اللبن واكل البيض واغلب
الفواكه ولم يحدث ذلك في نفسي اذنى تأثير
ب — ما السبب اذن ؟

١ — حينما عدد لي الطيب الاصناف التي لا يسمح لي
بالكلها ألفت نظري لفظ خوخ وخرجت من عنده افكر في
الذي احبه والذي لم اكله منذ سنة ولكنه لم يجذبني كثيراً في
ذلك اليوم . فكرت في الخوخ بضع مرات في ذلك اليوم وفي
اليوم التالي خطر ببالي وفكرت فيه اكثر . فكنت اتخيل
خوخاً جيداً ناضجاً جميل اللون على صحن ابيض وكان يخيل لي
من وقت لآخر اني اشم رائحة الخوخ كأنه قريب منى حقيقة
وفي اليوم الثالث لم ينقطع عن خاطري ولم يغيب عن
فكري طعمه اللذيذ ولونه الهيج ورائحته الذكية الخ . ولم يمض
اسبوع كامل على امر الطيب حتى نفذ صبرى وازداد
شوقى اليه حدة فلم اطق الامتناع عن تناوله وذهبت الى

بائع فاكهة فاشتريت منه خوفاً واكات منه ما يكفي لأن بعيد
إلى المرض في اليوم التالي وفعلنا عاودني المرض مبكراً .

فلو لم يذكر لي الطبيب الخوخ ولو لم أفكر فيه مراراً
كل يوم حتى قويت جاذبيته لنفسي لما أقدمت على أكله ولما
عاودني المرض . ان الطبيب بتحريمه أكل الخوخ عليّ قد
وضع أمام مخيلتي صورة جميلة من هذا الصنف وبكثرة
تفكيري فيها أصبحت اشتبهها أكثر من المعتاد

ب — فبناءً على ذلك يكفي الإنسان ان يكثر التفكير
في أي شيء لا تشتهر منه نفسه لكي يصبح ذلك الشيء يجذبه
إليه بقوة

أ — هذا لا شك فيه وما عليك الا ان تجري التجربة
بنفسك لتتحقق من صحة ما أقول . كم لبثت لا تأكل «الفول
المدمس ؟»

ب — منذ ثلاث سنين تقريباً . وآخر مرة أكلت فيها
هذا الفول كانت معك . أتذكر ذلك ؟

أ — نعم . وهذا حسن جداً ودليل على أنك لا تحب
«الفول المدمس» بوجه خاص اذ لم تشتهه أكله منذ ثلاث

سنين . فجاهد من الآن ان تفكر فيه . فكر فيه كل يوم قبل
الفداء وقبل العشاء وفي الليل خصوصاً قبل ان تنام . جاهد
ان تفكر فيه بهذه الكيفية وخبرني ماذا ترى بعد اسبوع ؟
— أظن ان الحق بيدك . لأنني من الآن أشتبهه بما
بالك بعد اسبوع . فمتى نذهب الى ذلك الدكان الصغير لنا كل
« الفول المدمس » في اطباقه البسيطة وما يقدم معه من التوابل
الحريفة والبقول ؟

ولكن كيف يمكن تطبيق هذه النظرية على نظرية
زوجي وخليفتي وما يجملني أمل من احداهن وأميل الى
الآخرى ؟

١ — ان نظريتك هي نظرية الخوخ والفول المدمس
او الفاكهة المحرمة كما تسميها ولكنها بمثابة مغائر
انك كنت تحب امرأتك في جدة الزواج وهي تحبك
فلما تأكدت من حبها لك اصبحت لا تفكر فيها وصارت كالخوخ
الذي كنت لا افكر فيه فلهوت عنها وضربت عن حبها
الذكر صفحاً فلم يعد يشغل فكرك . ومن جهة أخرى وجدت
امراً لا خلاق لها من الشمم قبلت ان تكون لك خلية

ورضيتك عشيراً غير شرعي لأنك أجريت عليها قليلاً من
الذل كل شهر تقاضاه منك كخادم أو عامل . انك تفكر فيها
دون ان تشعر تفكر فيها بلا شك في الصباح وفي المساء وما بينهما .
تفكر فيها صباحاً في بيتك بجانب زوجك لانك ستذهب
اليها لتعلم حالها وظهرها لتراها قبل ان تعود الى قعيدة بيتك
التعسة وتفكر فيها لبلا بعد ان تعود الى بيتك لتسأل نفسك بما
عساه ان تكون عليه تلك الحائلة في غيبتك عنها الخ .

فترى انك تفكر فيها بالرغم منك دون ان تشعر . ومع الوقت
والاستمرار في التفكير امكنتك ان تحبها بلا انقطاع وتشتهيها
كثيراً كما تشتهي « الفول المدمس » الآن واؤكد لك لو
فكرت فيه اسبوعاً تحور نفسك منجذبة اليه بقوة لا يمكنك
تصورها الآن واجدأ اللذة في اكله ما دمت تفكر فيه والدليل
ان العمال الذين لا يعرفون غذاء غيره تقريباً يأكلونه بشهية
اقوى من التي يجدها ذوو الترف والثراء في الوان اكلهم
الكثيرة . لا اقول لا يشتهون اكلأ غيره ولكنهم يجدونه
اقل ثمناً واجود تغذية من المآكل الرخيصة التي تسمح بها
ارزاقهم الضئيلة باستمرار فهم . يفكرون فيه اضطراب من غير

انقطاع الا من يسر منهم وتسمح له ذات يده بالتفكير في
ما كل اعلى ثمناً فيلهمو عن « القول »

وهذا هو السر في حبك خليلتك فانت أحببتها وتستجيبها
ما دمت تفكر فيها متخذاً لها بيتاً خاصاً بها الخ
ب - امر غريب ... ألا يحب الانسان اية امرأة الا
اذا فكر كثيراً فيها ؟

ا - لا شك في ذلك

ب - ما رأيك اذن فيما يشاهد احياناً من ان يحب الانسان
امرأة حال ما يراها اول مرة فبقع حبها في قلبه فيهدم صبره
ووثباته وحزمه ورويته و... الى آخر كل قوة فيه وهو
ما يعمرون عنه بالصاعقة الحبية التي لا تحتاج في تأثيرها على
قلب المحب اياماً كما تدعي

ا - وبحك لا تعالط ولا تخط بين الحين فما ضربته مثلاً
لا يسمى حباً حقيقياً وانما هو حب امتلاك تدفع اليه الشهوة
البيهيمية الغريزية في الانسان مهما تهذبت خلائقه على انه لا
يحدث الا اذا كانت المرأة متناهية الجمال الذاتي فأين هذا من
الحب الحقيقي الذي تتكلم عنه ؟ الذي يتكون بالمشاورة على

التفكير؟ وهو ما ينطبق عليك . فزوجك اجل ذاتا واسمى
خلقا ونفسا وطباعا من تلك الخليقة باعترافك وانك لم تحب
الاخيرة الا بعد مدة من معرفتها . ألم يكن ذلك حقا؟

ب — بمزيد الاسف اعترف لك بصحة ذلك . فما الذي
يجب علي عمله؟

أ — أقلل من التفكير في خليلتك بعد ان اتضح لك سر
حبها وفكر ما استطعت في زوجك وقل لي ما تصل اليه في
هذا الطريق بعد شهر انك لاتستطيع ان تنظر بنظري في
حالك الآن مع تسلط تلك العوامل المتنازعة على قلبك
وعواطفك كما يقولون « حبك الشئ » يعني ويصم « ولن
تستطيع الا اذا أجريت التجربة بنفسك ومرت على الحطة
التي وضحتها لك

ب — سأجاهد ان اعمل بنصيحتك واخبرك بما اصل اليه .

السهم الطائر غير متحرك (١)

❦ انظر الى هذه الساعة لأول مرة ❦

- ا = أحق ما يقال عنك من انك تعتقد ان العصفور الطائر غير متحرك وان الطائرة السابحة في السماء ليست متحركة
- ب = قد حرفوا لك القول عن مواضعه في توضيح فكرتي وانما الذي قلته : انه ليسهل للانسان ان يثبت ان السهم المقذوف في الهواء غير متحرك عن ان يثبت انه متحرك
- ا = لم يحرفوا شيئاً في توضيح مرادك اذن وهل تظن ان مالدريك من الادلة كاف لاثبات فكرتك ؟
- ب = نعم . هل تأملت جيداً الى سهم وهو طائر ؟

(١) هذه فكرة للفيلسوف زينون والرد عليها بعضه مستنبط من آراء برجسن في الحركة بتصرف وضعاً على هيئة مناقشة بين ا. ب. مع توضيح يسير ليسهل فهمها

انت تعلم ان السهم لا يمكن ان يشغل موضعين متتابعين
الا اذا منحه لحظتين على الاقل . تأمل الى السهم في كل من
هاتين اللحظتين فتراه في كل لحظة منها « في » موضع ما .
ولو انعمت النظر اليه في كل نقطة من طريقه لوجدته « فيها »
وهذا ما يمكننا من تصويره في اى موضع من طريقه بآلة
التصوير الشمسي (الفوتوغرافيا) اذ امكان تصوير السهم في محل
ما دليل على ان السهم كان ثابتاً في ذلك المحل ولو جزءاً صغيراً
جداً من الثانية (١) وبما ان السهم ثابت في كل نقطة من
طريقه فهو ثابت طول زمن الطيران
او بعبارة اخرى غير متحرك (٢) أفهمت كيف يكون
السهم الطائر غير متحرك ؟

١ = هذه مغالطة لا باس بها

٢ = كيف تسميها مغالطة اني لاراهها نظرية صحيحة فلسفياً
١ = اما نظرية صحيحة فلا . ألا تبالي لو لطمتك على

(١) ليس هذا المثل (لزينون) نفى عن البيان ان الفتوغرافية

لم تكن في عصره

(٢) المرجو تكرير مطالعة هذه الفقرة بدقة

وجهك الآن ؟

٥ = كيف لا أبالي ؟ . . ولماذا ؟

١ = للسبب عينه فأنك لو تأملت الى ذراعي ملياً في كل نقطة من طريقه لرأيتها « فيها » وبما أنها ثابتة في كل نقطة فهي كذلك طول طريقها وبعبارة أخرى غير متحركة . ففلسفياً يجب عليك ألا أبالي بلطفتي لأن ذراعي لم تتحرك

٥ = أنك تمارح محاولاً ان تمسخ النظرية وتسحق رأيي بالضحك . فانت تهزل بينما أخاطبك بجِد الحديث

٢ = ألا تحس بضعف مغالطتك وفسادها حقيقة ؟

٥ = ان كان الامر كما تقول فبرهن لي انت على ضعفها

وفسادها ما دمت ترى تفنيدها سهلاً

١ = ان السهم « ليس في » محل ما من طريقه

٥ = ما معنى ذلك ؟

١ = ان السهم يمر بالنقط ولكنه « ليس » ثابتاً في نقطة منها

زماً ما . بل يمر بالنقطة زمناً ما . فحينما تظن ان السهم المقذوف

في نقطة س مثلاً يكون قد انتقل بعد ان مر عليها فقط . وبما

ان السهم غير ثابت في اي نقطة من طريقه فمغالطتك فاسدة

— ان برهانك عذا غير واضح تمام الوضوح
 ا — أقول لك بعبارة اوضح اذا قذف السهم من النقطة ه
 يسقط في النقطة د فحركته ه د بسيطة غير قابلة للتحليل
 بصفتها حركة كقوة الوتر الذي قذفها . فهي قذوة واحدة
 لا غير .

ومغالطتك آتية من انك تضع نقطة ثالثة مثل ه في
 طريق السهم وتقول انه في زمن ما من سيره « كان » في نقطة
 ه . ولو « كان » كذلك لدل على انه مكث فيها ولو لحظة ومن
 ثم لا توجد حركة واحدة من ه الى د بل حركتان احدهما
 من ه الى ه والاخرى من ه الى د وتكون ه نقطة استراحة
 في الوسط وهذا يخالف الفرض .

ان الحركة الواحدة الكاملة هي التي تكون بين موقفين
 اي سكونين . فلو وجدت نقط سكون متوسطة بينهما لا تعتبر
 حركة واحدة بل جملة حركات متتابعة . انك تسلم بان الحركة
 تلازم السكون وتستغرب مني ألا أوافقك واخضع
 لما تقول .

د — كلا انما استغرب منك انك تخالفني وانت غير قادر

على اقتناعي والا فافصح لي عن مرادك بعبارة اجلى فربما كان الحق معك

أ = ماذا تريد اوضح مما قلت : ان نظريتك على ما يظهر لا وجود لها الا عند رجل يلاحظ حركة السهم الطائر من بعد وهو يفكر كل لحظة في امكان وجود سكون في سيره مدعياً ان من الممكن تكوين الحركة الاصلية بواحدة تلك النقاط الساكنة وهذا مستحيل فلا يمكن تكوين حركة من نقط ثابتة . ان حركة السهم كمثل حركة في الوجود لا ثابت لها على حالة ما او في موضع ما بل هي فيما « ستكون اليه » .
ب = ماذا تعنى بذلك

أ = اعني ان المادة في تغير مستمر اي انها تتطور من حال الى حال ولا تثبت على حال فهي في تغير بين كل دقيقة بل بين كل ثانية واخرى (١)

ب = أريد ان تقول اني لست عين الرجل الذي كتبه منذ ثانية . ان كان هذا زعمك فهو كلام لا اصل له .. واظنك ..

(١) قد ذيلت هذه المناقشة بعبارة توضح الفرق بين ما كان من المادة من الكائنات الحية وغيرها

أ = اسمع . ما الذي يمنعك ان تعلم « انك لست « عين »
الرجل الذي كنت منذ ثانية » فترى من العبث الادعاء انه
في ثانية واحدة قد تغير كل منا ولو قليلا . وانا لا يزال كما
كنت ؟ ألا ينبغي على رأيك هذا ان التغير الذي يطرا علينا في
ثانية يساوى (صفراً) ؟

وعليه يكون التغير الذي يطرا علينا في ساعة لا يزال
صفراً لانه $3600 \times \text{ثانية} \times \text{صفر} = \text{صفراً}$ ولا يزال كذلك في
يوم حيث

ال ٢٤ ساعة $\times 3600 \times \text{ثانية} \times \text{صفر} = \text{صفراً}$ وبهذه
الكيفية يكون تغيرنا بعد سنة = صفراً ويكون هذا شأنه بعد
مصرور ٢٧٥ سنة مثلاً .

وبما اننا نستمر على حالنا هذه دون تغيير سنجتمع هنا كما
نحن الآن امام هذه المائدة وامام هذا الخادم الذي لن يؤثر
عليه كراغدة ومر العشي مثلنا . فطب نفساً اذن فانت
خالد في هذه الدنيا باق على شبابك الفص

ب = يلوح لي انه لا هم لك الا تسخيف اراني
أ = اخطأت بنسبتي الى ذلك واظنني فهمت مرادك .

ولملك تقرر ان الانسان يتغير بمرور خمسين عاماً لكنه لا يتغير كل ثانية وهذا مستحيل لانه متناقض . وفي الفلسفة انه اذا تغير الجسم ولو قليلاً فلا يصح لنا ان ننكر هذا التغير فنقول ان الجسم لا يزال كما كان .

وبما ان الجسم يتغير شيئاً فشيئاً كل لحظة فهو غير ثابت على حال مخصوصة بل يتغير ويصير الى ما لم يكن عليه من قبل وبعبارة اخرى الجسم (كالسهم الطائر) ليس على حالة مخصوصة بل هو على « ما سيكون » (في تغيير مستمر)

١ = أظن ان ما اجيدت نفسك في تقريره ظاهر مقنع ؟
٢ = لم لا يكون كذلك ؟ ألم تفهم مرادي الالف ؟ انك بادعائك عدم فهمه تجعلني اعتقد في نفسي والعجز عن توضيح ما في ضميري اوانك تشتمني تعريضاً بنسبتي الى ذلك .

٣ = عفواً يا عزيزي لم اقصد شيئاً من ذلك ولم يخطر لي ببال .

٤ = ما علينا . دعنا نتكلم في شيء آخر لعلنا اوفق الى فهمك مرادي في فرصة اخرى .

كيف تقضي أيامك في هذا البلد

— = اقضها متضيقاً

١ = أذهب كثيراً الى دار التمثيل ؟

— = لا .

١ = رأيتك صباحاً أمام دكان صائغ في شارع شريف

ياشاً على ما أتذكر

— = نعم ذهبت اليه لآخذ ساعتى التي كانت وقت من

جيبى فانكسرت وكلفته باصلاح ما طرأ عليها فأنظر كيف

أصلحها وجبر كسرها فلم يعد يرى . . . ان هذا النطاء كان

قد انحنى وانشق

١ = انها ساعة جميلة منى اشتريتها ؟

— = انها ساعتى القديمة التي رأيتها كثيراً وعرفتها جيداً

١ = لم أر هذه الساعة قط وآلان انظرها لأول مرة

— = مالك تذكر معرفتها ؟ ألم ترها في الاسبوع الماضى

وقلبتها بين يديك مدة طويلة وقلت انها جميلة ؟ أليست هى

هذه الساعة ببينها التي كنت تريد ان تشتريها منى ؟

١ = ا تذكراني رأيت معك ساعه قبل آلت تشبه
هذه الساعة

ب = ثق انها هي بعينها ولم يكن عندي ساعة سواها
١ = لا أظن اني رأيت هذه الساعة بعينها قبل الآن
بالرغم من تأكيذك

ب = ماذا جرى لك ؟ أمعن النظر فيها مرة أخرى
١ = قد فعلت ومهما بالغت في تدقيق النظر اليها كما كنت
انظر ساعتك في الاسبوع الماضي زاوية مخصوصة تحت مقدار
من الضوء كالذي كانت فيه فلا يمكنك ان تمنع ساعتك من
كونها صارت أقدم مما كانت عليه حينئذ (١) ولا ان تمنع عيناها
من كونها قد ضعفت قوة نظرها ضعفاً ما يجمعها لا يدركان
بمقدار ادراكهما من اسبوع (٢)

قدمت ساعتك في جيبيك وضعفت عيناها ولو قليلا وهذا
التغير لا يمكنك تكرانه . فلا تستطيع ان تقول ان هذه الساعة

١ - ليست هذه الفكرة لبرجس . « انظر ما ذيلنا به هذه
المحاوره »

٢ - هذه الفكرة لبرجس

هي كما كانت عليه ولا ان تقول ان عيني لم يطرأ عليها تغير.
فاذا كان الامر كذلك فلا ينبغي لك ان تشتقرب
منى ان اجهلها بالمرّة ما دام التغير طرأ عليها وعلى وما دمنا
نتكلم فلسفياً

٢ = ما الذي ترمي اليه بهذا القول ؟

١ = أريد تفهيمك ان الساعة « ليست » في حالة ما بل
في تغير مستمر هي فيما « ستكون اليه »

كالسهم الطائر الذي « ليس » في زمن ما ثابتاً في نقطة
ما بل هو فيما « سيكون »

٢ = قد فهمت مرادك ولا بأس يرهانك .

١ = أشكرك يا عزيزي

نذير

بما يخص فكرة برجس المتقدمة

وما طرأ عليها من التحوير في مناقشة أ ب المتقدمة

يقول برجس ما معناه

بحور الانسان بلا انقطاع من حال الى حال فهو يشعر
تارة بمرارة وأخرى يبرد وطوراً يكون حزيناً وحيناً يكون جديلاً
تمر به احوال واحساس وشعور . فهو في تغير مستمر

لا يمكن الانسان ان يعيد جزءاً من حياته الماضية

ولا ان يمر بحالة هي عين حالة مرت به او أن يشعر
باحساس هو نفس احساس شعر به من قبل . ذلك لانه مهما
كانت المسببات هي التي سببت حالاته الماضية فهي لا تؤثر على
« عين » الانسان الذي مرت به بل تؤثر عليه في زمن آخر
من حياته خالف فيه ما كان عليه من قبل اذ ان شخصيتنا وما

تحتويه تكونت وتشكون بلا انقطاع بالتجارب ومن مرور الزمن
عليها . فيما ان الانسان ليس في حاضره على ما كان من قبل
بل تغير ولو قليلا فلا يمكن ان يوجد في حالة هي عين حالة كان
عليها ولو وجدت نفس المؤثرات التي كونت الحالة الماضية
هذا بالنسبة للانسان الحي أما الجماد فهو بخلاف ذلك لان
جوهره لا يتغير .

وقد يتغير حال الجماد بتغير اجزائه التي من الممكن ان
تعود على ما كانت عليه . وان جسما من الاجسام يمكن ان
يعود الى الحالة التي كان عليها من قبل اما بنفسه واما بقوة
خارجية تعيد كل جزء الى مكانه دون ان يعضد الدهر ببناءه
بخلاف الانسان وكل كائن حي . وحاصل فكرته ان الانسان
يتغير ويهرم بين برهة وأخرى ولا يمكن ان يرجع الى ما كان
عليه أما الجماد فلا يهرم ويمكن ان يرجع الى ما كان عليه .
ولا يخفى ان رأي « برجس » هذا أساسه ان المادة لا تنعدم
وهو رأي دحضه العلم وبرهن أخيراً على فساد وبناء على ما
أثبتته العلم حديثاً وهو (ان المادة تنعدم) يمكننا ان نقول في
الجماد ما قاله في الانسان اي ان كل ما كان من المادة في تغير

ستمر وبمباراة اخرى ان جميع الاجسام تتغير كما يتغير الانسان
تتغير الا ان تغيرها بطيء جداً .

وبما ان المادة سائرة الى العدم نقول ان هذا التحول
يحصل بلا انقطاع وان الاجسام الجامدة تتغير ببطء الى ان
نفنى كالانسان وعليه لا يمكن ان يعود اي جسم الى نفس
الحالة التي كان عليها بالرغم من وجود نفس المؤثرات والقوى
اللازمة لارجاعه الى حالة كان فيها لانه قدم ولو قليلا وبقدمه
تغير والمؤثرات معها توفرت لا يمكنها ان تلج فيه ما
انتجته قبلا . م

الشك

يقول فلاسفة الشك ان الانسان لا يمكنه ان يدرك حقيقة الاشياء ويؤكد الاحاطة بكنهها نظراً لضعفه ولو صادفها لعجز عن معرفتها وينتوون ذلك على دعائم متينة يصعب تقويضها وتؤدي بالانسان الى الشك في كل شيء اذا نهج منهجهم في النظر والاستدلال وقد اتخذ بعض الادباء تلك النظرية دخلاً فكتبوا فيها الفصول الطوال وبالغوا في مقالهم كما هي عادتهم حتى قال بعضهم « لا يجب الشك في حقائق الاشياء فقط بل يجب الشك في شئنا الخ »

وتصدى جماعة لنقضها فمحووا منها نقطاً هامة لم يتعرضوا لها طمساً لمعالمها ومغالاة في مذهبهم وقالوا في تسخيفها والتشنيع بارباها « ان الفيلسوف الشاك يشك في وجوده ويشك في شعوره ويشك في البديهيات بل انه يشك في الاشياء المحسوسة ككون النار محرقة والاشياء الثقيلة تسقط الى الارض بطبيعتها اذا تركت وكون الليل مظلم والنهار مضي الخ »
غنى عن البيان ان فلاسفة الشك لا يشكون في مثل هذه

الاشياء وان نسبهم معارضوهم الى الشك فيها والا لسهل
اقناعهم وتفديد نظريتهم

ان الشك الفلصفي الذي يصل اليه الفيلسوف يخالف
باقي الشكوك وتلاحظ انه لا يتعلق بالظواهر . لا يشك
الفيلسوف في كون المسل حلو والصبر مر والنار محرقة او ان
بعض الاشياء خاضع الى قوانين ثابتة والبعض على خلاف
ذلك انما يشك في كون هذه الاشياء هي كما تظهر له ويحسها
حقيقة يشك فيما لو كان الالم الذي يشعر به حين وضع يده على
النار هو عين الالم الذي يحس به باقي الناس ولا ينكر ان النار
تحرق وتؤلم

يشك فيما لو كانت حلاوة المسل التي يجدها بذوقه هي
عين الحلاوة التي يجدها غيره ولا ينكر ان المسل حلو
فمن ثمة كانت نظريتهم متينة . لا يمكن ان يتصور ان
فيلسوفاً عاقلاً يشك انه لو غيب تحت الماء لا يموت غرقاً
او لو ألقى من السطح لا يسقط على الارض فينتشم وربما
زهقت روحه او انه اذا ألقى في النار لا يحرق
ان هذه الاشياء وامثالها حقائق محسوسة لا يشك فيها

الجهلاء فكيف يشك فيها فيلسوف قتل الدقائق بجمياً
فوضع شك الفلاسفة لا ينافي وجود قوانين ثابتة اتفق
الناس على تسميتها حقائق وبديهيات ونحوها

المعجزة

ب = ما الذي اغضبك من محمود ؟

أ = اغضبني منه جموده على اعتقاد بأحسته فيه من قريب

أ = ما هو ؟

ب = انه متمسك ببعض روايات عن حوادث قديمة لا

يقوم عليها دليل . يعتقد في صحة المعجزات يؤكد لي ان النبي

(صالح) مسح بماء على ذراع مقطوعة فمادة الى ما كانت

عليه سليمة فهل مثل هذه الحادثة يمكن وقوعها ؟

أ = لا أدري ان كانت هذه الحادثة عينا وقعت

ب = أترى على وجه العموم امكان وقوع مثل هذه الرواية

على يد نبى ؟

١ = لم لا ؟

٢ = ألا ترى ان هذا مستحيل

١ = ان لفظ المستحيل ليس له معنى هنا فاذا كان صديقك أكد لك صحة وقوعها فلا بد ان يكون لديه ما يؤيد به قوله واذا كانت هذه الحادثة وقعت فعلا فلا داعى لقولك انها مستحيلة

٢ = مثل هذه الحادثة لا يمكن ان تكون وقعت ولا يمكن ان احد رآها اذ العقل لا يتصور ان عضواً فصل من الجسم ينمو ويوجد الى ما كان عليه

١ = مه . انك تثبت برأيك اكثر من صديقك الذي تقض منه .

لو كنت رجلاً علمياً حقيقة مذهبك القياس لقلت له اذ برهن لك على صحة روايته . «يجوز» بدل ان تثبت بتكذيبه ولقلت : ان حادثة كانت تظهر لنا مستحيلة حتى وقعت تبطلنا نظن ان المواد المكونة للذراع اذا ما وجدت في حالة

معينة تكسبها خاصية العودة الى أصلها اذا بترت كارجل
السرطان البحري وذيل الخردون او الضب ولكنها تخالفها في
السرعة (١)

وبالرغم من ان هذا الحادث يخالف ما صكنا نعمتقد
فلا ينبغي ان نكذب المشاهدة . لان هذا نتيجة عدم المامنا
بكل شيء فان من المسائل الطبية ما هو غامض الى الآن
لم يتوصلوا الى حله وكشف انقباب عن غموضه

فأولى لك ألا تطيل الجدل فيما لا تعلمه وان تسبه
الى الجواز

«١» المظنون ان هذه الفكرة لا تأتول فرس الكاتب الشهير

بين مسلم وآخر منتصر للبهائية

- ١ — ما الذي يدعوك الى ذم الدين الاسلامي
٢ — انا ؟ لم اذمه ولم اقل شيئاً ضده
١ — ولكنك تمدح البهائية
٢ — نعم . وعلى اي شيء يدلك ذلك
١ — ان مدحت البهائية وانت مسلم ذم للدين الاسلامي
وطعن في اسلامك لا سيما اذا جهرت به بين جماعة من
المسلمين
٢ — ألسنت حرّاً ان اقول ما اريد من الحقائق ؟
١ — ولكنك بكل اسف لم تلفظ بحقيقة بل انك تتكلم
باشياء لا تليق بمن كان مثلك
انك تقارن بعض شبه في الدين الاسلامي بما زخرفته
للبهائية . هذه طريقة عقيمة لا يستعملها من ليس له غرض
لا اخراج حقيقة صريحة للناس . اجل انها خطة خسيسة لا

يستعملها الا ذو غرض . في كل دين امور صريحة وشبه لا يعقلها
الا علماؤه واما المسلمون فالدعامة القائم عليها معتقدتهم ما جاء في
كتابهم من قوله تعالى (هو الذي انزل عليك الكتاب منه
آيات محكمات هن ام الكتاب واخرى متشابهات فاما الذين في
قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله
وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل
من عند ربنا وما يذكر الا اولو الالباب)

واؤكد لك انه لولا الامور المبهمة في الاديان لما اختلف

الناس في دين

ب — ما الذي ترمي اليه بقولك هذا

ا — اريد ان افهمك اني لست متعصبا وان الدين الاسلامي
يحتوى على المحكم (اي الصريح) والمتشابه الذي يحتاج في فهمه
الى تعمق ورسوخ وعكوف على دراسة اصوله وما يستدعيه
ذلك من دراسة علوم اخرى وارى ان تعرضك لتقد ما تشابه
من ذلك الدين ومقارنته بما زخرفته البهائية يناقض الصراحة
والامانة والشرف وكيف بمن ينسب للدين الاسلامي يلفت
نظر اعدائه الى ما هو مبهم او متشابه فيه والى ما هو مزخرف

في سواء ؟ اهذه طريقة جدل حسنة ؟ لم لا تلفت المسلمين الى
النقط الواهنة التي امست عليها البهائية
ب — قلت امس

ا — بلغنى ما قلت ولا ادري ما عرضك به اللهم الا ان
تكون طالباً الشهرة فان كان هذا غرضك فهو في منتهى الحسنة
ب — ارخو ان تحاسب نفسك على هذه الالفاظ الجارحة
التي تكيها الى جزافا واكرر لك القول بأني حر في اعتقاد ما أريد
ا — قد يكون لك ذلك وقد تساعدك نظم المحاكم المدنية
في عصرنا الحاضر ولكنك لست حراً ان تترك لتعبت بعقائد
الشبان بمغالطات تافهة تعلم انهم لا يقدرّون على تفنيدها ولنرجع
مع ذلك الى اعتقادك الجديد لترى انك تتكلم في موضوع
تجهله بالمرّة

ب — انا اعلم منك به

ا — لا ادعى اني اعلم منك به بل اعترف بقصوري عن
فهمه حق الفهم كما يفهمه عالم ديني قضى حياته في تلك المباحث
وارى من العار ان تتكلم الانسان بشقة فيما يجهل وانت تجهل الديانة
الاسلامية بالمرّة ولم تقرأ منها الا قشوراً كما يدل عليه كلامك

فبها بل يظهر لي انك لم تتل المصحف الشريف مرة واحدة في حياتك .

اتذكر ما قلته في الجنة والنار من ان وصفها ...
ب — نعم قلت ان الديانة الجديدة تنفي تلك الافكار القديمة التي تقرب من الحرافات وتنبئ ان ارواحنا بعد الموت تذهب الى احد الكواكب لتعذب او لتتعمق وقلت ان وصف الجنة والنار في القرآن مما لا يقبله العقل .

ا — اي عقل تعني ؟ وعلى اي قياس نجري وبأي تأويل تفسر ما قرأته او قيل لك ؟ ان في القرآن آيات ظاهرة للعامة الذين يحتاجون الى تهويل في الترغيب والترهيب ليقوي ايمانهم وبقبلون على الطاعة واخرى لا يعقلها الى العلماء . كما تشير اليه هذه الآية منه (ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان اكثر شيء جدلا) (١)

من يدريك ان القرآن ينافي الفكرة التي ذكرت ؟

ب — اين ذلك ؟

ا — قال تعالى (وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها

«١» وهذه الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون »

السموات والارض اعدت للائقين) . اي ان عرضها الكون كله الذي لا حده

فاذا اخذنا بظاهر الآية لزم ان تكون الجنة التي عرضها السموات والارض خارج الكون وهذا مستحيل

ولا يمكن ان تكون داخل الكون لانها تكون اصغر من السموات والارض التي هي عرضها فدلنا ذلك على ان المراد من الآية الكناية عن وسعها بالتعبير بأوسع ما عرف الناس وانها داخل الكون من غير تحديد ومثل هذه الكناية شائع مستعمل بكثرة عند العرب الذين نزل القرآن بلغتهم وهو في الوقت نفسه لا ينافي المذهب البهائي الذي تقول عنه

تقول ان الدين الحديث المبني على الآراء الحديثة وعلى العلم الحديث تنبيء ان روح الانسان ستخل في جسم آخر وتشكل آخر الخ وليست كما يقول القرآن من ان الارواح تعود حين البعث الى اجسامها وان الناس يتحدون بعد البعث في سن الشباب فلا يبقى هرم على هرم ولا طفل على طفولته يتحد الكل في الشباب والنضرة والجمال والقوة الخ ونقول ان هذا اوضح مثال لتصوره عامة الناس واما

خاصة العلماء فيجدون اوسع مجال لعقولهم كما يجد ارباب
الافكار الحديثة ما يلائم مباحثهم في مواطن كثيرة من القرآن
منها : (نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على ان نبدل
امثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون)

فما معنى هذه العبارة الاخيرة ان كنت ممن يفهمون ؟
ألا يمكنك ان تجد بقراءة القرآن وتدبر معانيه رداً على كل
فكرة حديثة تظنها بدعا من العقول قبل ان تتجاسر على انتقاد
دينه ؟ فابدأ بدرس ذلك الدين ثم انتقده ان استطعت
اعتقد ما شئت وشاء لك هواءك ولا تفسد على الشيعة
عقائدكم لك دينك ولهم دينهم

ب = فليكن ذلك وانما الذي قلته والذي دارت عليه
المناقشة بالأمر هي الفكرة التي لم تعرض لها
أ = وما هي فربما لم ينقل الي جميع مقالاتك

ج = قلت ان المسلمين على الاخص يقولون ان الله يعلم
الغيب اي انه يعلم ما سيكون وما سأعمل بعد سنة او اكثر مثلاً
فاذا كان الامر كذلك فلا يمكن ان اعمل ما يخالف علمه
لان في ذلك ما يناقضه . ويستنتج منه اني لست بخيراً أفعل

ما أشاء وإذا كان الامر كذلك فما الحكمة في عقابي . الا
يكون ذلك ظلماً ؟

١ = كلا هذه مغالطة ضئيلة ككافة افكارك ان المسلمين
يعتقدون ان الانسان حادث له اول وآخر وان الله ازلي لا
اول له ولا آخر وإذا كان الامر كذلك فلا يوجد بالنسبة له
ماض ولا مستقبل لان ذلك يستوجب وجود اول وآخر له
تعالى . هل انت فاهم ؟ يستتج من ازالة الله ان كل شيء بالنسبة
له حاضر في علمه فهو يعلم الاشياء حاضرة لا كما ترى انت ماضياً
ومستقبلاً لكل عمل وما تراه بعيداً فهو قريب في علمه لا يغيب
فانت مخطيء في نسبة الظلم الى الله اذ يعاقبك على المعصية لما
اودع فيك من الجزء الاختياري الذي لم تستعمله فيما امر به
وهو شاهد عليك . فان كنت ممن يقبلون النصيحة فاعمد
الى فهم اصول الدين قبل ان تتمسّدق بالاعتراض على
مسائله الفرعية .

مجنون هندي

سمعت من بعض الاخوان بهذا المجنون انه قضى حياته في الاشتغال بالفلسفة وانه غريب الافكار والاطوار وكثيراً ما ينصح للناس ويحثهم على اتباع مذهبه الذي يبالغ في تحسينه ويغلو في شئ وتروجه بين الناس كما انه يحجب من يسأله أياً كان عنى القور من غير مبالاة . ولا يحقر انساناً مهما كانت صفته وآراءه ومذهبه . وهذا ما جعل الناس يسمونه المجنون .

ذهبت اليه ذات يوم مع احد اقاربي لنرى هذا الرجل ونقف على شئ من احواله ونسأله عن بعض اشياء غامضة علينا ان امكن .

دخلنا منزله . لم يمض وقت طويل حتى حضر وحبانا باختصار فرأينا رجلاً ذا لحية بيضاء طويلة يبدو عليه اثر الانهالك في الدرس والمطالمة وكلال اذهن كاتدل ملامحه وحركاته على ضيق خلقه ومرعة غضبه ثم شرع يسألنا من اين جئنا فاخبرناه

اننا نسكن بجواره فنهض من مكانه وأخذ يتمشى في الحجرة
بسرعة وقال لنا

— او كنتم تنتظران زيارتي لكما ؟ ما منعكما ان تبيئا قبل
اليوم ؟ ان مجيئكما يدل على رغبتكما في معرفتي . من انما وما
اسمكما ؟ وما الذي دعاكما للتفكير في زيارتي اليوم ؟ غريب . .
استمر يتكلم هكذا موجهنا اليها الاسئلة غير منتظر الجواب
ثم قال :

— اشكركما على هذه الزيارة . وارى في اهتمامكما بمعرفتي
دليل على حبكما الفلسفة أليس كذلك ؟ اشتغلا بها خصوصاً
بالجزء الذى يبحث عن الانسان وعن حاله وحقيقته فمن عرف
نفسه فقد عرف ربه ومن عرف ربه عاش هنيئاً . اشتغلا بالفلسفة
فمن العار ان يشتغل المرء بأشياء كثيرة لا يهمه علمها ويجهل
أهم الأشياء المتعلقة بذاته ومعرفته نفسه .

اتعرفان السبب الذى يجعلكما تحبان بعض الناس وتكرهان
البعض على غير سابق عداوة او صلة ودية مثلاً ؟ كيف تفكران
وكيف تذكران وكيف تخيلان الاشياء ؟ ماذا يضعف تلك
الحواس وماذا يقويها ؟ اتعرفان على اي شيء تتوقف ارادتكما

التي تدفعكما الى اي عمل والتي توقف تيار شهواتكما الخ . ؟
واأسفاه على الشباب ! وا رحمتاه على رجال المستقبل
الذين يعول عليهم في النهوض ببلادهم . عجيباً لأناس لا يدرون
أسباباً لقوة الارادة او لضعفها . يظنون انهم قادرون على تربية
اولادهم تربية يكونون بها رجالا اقوياء يفنون وطنهم عن
سواهم ويحمون ذماره .

اي قيمة لانسان لا يعرف مواطن الضعف من نفسه
فيبادر بمعالجتها . يذهب الى الطبيب عند اي مرض جسماني
يصيبه فالى من يذهب ليعالج امراض نفسه ؟ اين اطباء النفس ؟
فالناس احوج اليهم من اطباء الاجسام .

ما سبب فرح الانسان وحزنه ؟ وعلى أي شيء تبني ميوله
التي تكبر وتتجسم حتى يصبح غير قادر على كبح جماحها ؟

يدعي كثير من الشباب معرفة المنطق والتكلم بالمنطق وهم
يجهلون المنطق جهلهم دينهم والالهيات والطبيعات ومن ادعى
منهم علم شيء من ذلك لا يعرف منه اكثر مما يعرف سائق
عربة (الترام) قوانين الميكانيك والكهرباء

يؤلني ان اتكلم في هذا الباب وان لم اطق عنه صبراً

فأني سئمت الكلام عن المدارس المصرية والتدريس المصري
والطرق العقيمة التي يسير عليها المعلمون والمتعلمون سئمت من
غطرسة أولئك المدرسين وصلفهم واحتقارهم للغير وادعائهم .
لا يرون للغيرهم رجودا ولا يقيمون لغير مدارسهم وزنا .

ارجوكم ألا تكلماني في هذا الموضوع (ألفت نظر القاري .
انا لم نهس لفظة واحدة) لا تكلماني في فيه فانه لا يكسبكم الا
عداوة الناس انكما شابان في مستقبل الحياة

ان الناس في هذا البلد يحترقون كل من له مبدأ في الحياة
وكل من له ولم يعلم خاص لا سيما علم اللاهوت

يحترقونني وينظرون الي شزرا . يقولون . . . مسكين . .
مجنون . . . مهوس . . . احق والله يعلم من الاحق . صدقوني
ان هذا هو الخاصل وهذا ما يقال عني لا تنكروا علي ذلك
لانكم اربما كنتم على شاكلتها وان سبب زيارتكما لي قربا
المجنون الذي سمعتم عنه وعن شيء من افكاره

ان ما نقل اليكما من افكاري مشوه ولا ريب كما هي
عادة النقل هنا

استب بصاحب مذهب فلسفي كما يدعون بل اعتقادي

هو اعتقاد الجميع لا اخالفهم الا في اليسير
لا اطلب من الناس الخضوع لا رأيي انما ابحث عن
اصدقاء لا فكري . . . اصدقاء يقبلون ان يصبروا في الحياة
بجانبي . . . اصدقاء يوافقوني تارة ووافقهم اخرى كلما اتضح
الدليل ولا ابحث عن اولئك الجامدين الذين لا يُرحضهم
دليل ولا يؤثر في مكابرتهم برهان .

انكم لم تسائلوا انفسكم اقبل ان تحضروا الى هنا لتقفا على
بعض آرائي حتى تقارنوها بآرائكم . فمملكم هذا لا يجديكم
نفعاً . ابحثوا بانفسكم ولا تخافوا ان تنفردوا برأي يخالفكم فيه
الجمهور

ان الهى الهكم ولورماني بعض الجهلاء بالكفر انا لا اخالف
الا مذهب الطبيعيين اما باقى الاديان فترجع في نظري الى
اصل واحد هو الاعتراف بوجود الآله وان اختلفت في
بعض امور ثانوية . كل حزب ينهج في دينه منهجاً لا ينهجه
الآخر ويصف الهه بصفات ويسميه باسماء وينسب اليه اشياء
قد يخالفه فيها الآخرون . ان الآله اكبر من ان يحيط به وصف
او ان تمحص اعماله محد او يعبر عنها بلفظ ولكن الناس يحتاجون

لذلك في اظهار عبوديتهم وتوضيح معتقداتهم فاننا اعتقد ان
الهي رؤوف رحيم بعباده الضعفاء فاننا لا نتصور الآله كما تتصورونه
اذا أراد احدكم ان يتصور الآله (ولو ان ذلك لا يجوز في
اكثر مذاهب المتدينين) يتصور ذلك الآله المنتقم من عبده
الذي سبعاقيه في نار جهنم طيل الابد لانه ارتكب بعض ما
حرم عليه في حياته الصغيرة يتصوره في هيئة رجل في يده
(بلطة) رافعها للضرب والانتقام

الهي الحكم ولكني لا افسره مثلكم

فما العقاب اذن الذي سبعاقب به الانسان على ما عمله
في حياته من المحرم ؟ . . .

ان كان ولا بد من العقاب فاقول ان الهي يعاقب الناس
عقاباً . عنوي او لو اردت لقلت لكن ان الانسان هو الذي يعاقب
نفسه لما يفعله . ان الهي كوالد شفيق يحب اولاده كما يحبرنه
نهام عن ارتكاب بعض اشياء فاذا ارتكبوها آسفه عدم اطاعتهم
ما امر به واعتقادي انه لا يعاقبنا على ما نفعل ولكن الانسان
لا يمكنه ألا يتألم من ان يرى ربه ذلك الوالد الشفيق
غضبان آسفاً لعدم اطاعة اولاده لاوامره ولا يمكنه عدم

مشاركته في اسفه وهذه المشاركة هي العقاب الوحيد
ان الدليل على ان الألم والحزن من الاشياء التي يشارك
الانسان غيره فيها على الرغم منه انه اذا كان جالساً في مطعم
وامامه قطعة من الخبز واخرى من اللحم وهو جوعان ثم
شرع في الاكل فلا شك انه يشعر بسرور وراحة في ذلك
الوقت فلو مر به مسكين اصفر الوجه ممزق الثياب هزيل
الجسم تعلوه سحى الألم من الجوع ووقف ذلك المسكين
امامه ينظر اليه ويراقبه وهو يأكل لما امكنه الاستمرار على
الاكل بالشهية التي كان يجدها والسرور الذي كان يخالجه قبل
وقوف المسكين امامه وان لم يطلب منه شيئاً
ان حال المسكين الذي ينظر الى من يأكل ولسان حاله
ناطق بما انطوى عليه من ألم وحاجة الى الطعام قاطع بلا شك
لشهية الاكل جالب له الألم وانتقاض الصدر . فيكون قد شارك
الفقير في الألم وذاق العذاب الذي يعاينه دون ان يشعر
واعتقادي ان العقاب الذي سنلاقه في الآخرة يشبه
هذا الألم المعنوي حينما نرى ربنا وخالقنا غير راضٍ عن اعمالنا
التي لم تتبع فيها اوامره ونواهيه .

لواضطرت الى تصوير الهى لأناس يحتاجون الى ذلك
لصورته في صورة اب رحيم غير متقم من اولاده بقسوة لما
يجده منهم من عدم اطاعتهم له .

عجبا لكم أيها الناس كيف لا تتصورون ان يرأف الحكم
اللطيف الخبير بما اتم عليه من الضعف وما يتساورك من
عوامل الشر بينما ترون حكماءكم يرأفون بحال الخلائق
ويعذرون من نكب عن جادة الهدى لما وصلوا اليه من الحكمة
وكرم الاخلاق والشفقة ؟

فما ظنكم برب العالمين وارحم الراحمين ؟ وهل ما وصل
اليه الحكماء وما اودع في قلوبهم من كرم ورأفة ورحمة بالشيء
المذكور بجانب كرم الله ورأفته ورحمة ؟

قال ذلك وودعنا فتمضت وصاحبي من دار ذلك الرجل
الذي افعمنا تأثيراً وهالنا امره وما اوتي من قوة التعبير بلمحجته
السريعة وصوته الجمهوري الذي لا يتهدج مع ما وصل اليه من
من الشيخوخة مما لا يتوفر لكثير من الشباب فقات لصاحبي
— ما رأيك في الرجل

— يظهر ان للناس بعض الحق في تسميته بالمجنون وان

كنت لا اشك ان الرجل قضى حياته في الاشتغال بالمباحث
الفلسفية لا سيما الالهيات وانه ما وصل الى هذه الدرجة من
قوة التعبير والجرأة الا بكثرة التعمق في البحث ومناظرة العلماء
وان له افكار صائبة ان صحت نسبتها له ونصائح ثمينة وان لم
يتكرها من ذلك الحث على الشجاعة الادبية في التمسك بالرأي
السديد مهما خالف الناس والاشتغال بما يتعلق بمعرفة الانسان
نفسه ولكنه مع الامف مصاب بالهوس الذي هو داء الكبر
وقلما ينجو منه من ازم من على الدرس والمطالعة في هذه المواضيع .
ألا ترى انه بالرغم من سعة اطلاعه وغزارة علمه وقوة تمييزه
وجهورة صوته لا يستطيع ان ينظم افكاره ولا ان يرتب
عقيدته المطربة وحسبك ما يسميه اراء خاصة له فما هي الا
خليط من المذاهب والاديان . فمسألة الرجاء والخوف عندنا
مشر المسلمين كجناحي الطائر لا يستقيم سيره بأحدهما وان
استحسن تغليب الاول في المرض او الهرم ولكن لا خوف الا
من الانتقام والانتقام يكون بذاب النار في الآخرة وكون
هذا المذاب حسياً عقيدة ثابتة في نفس المسلم فضلاً عن اعتقاده
في ان رحمة الله وسعت كل شيء . ولطفه بعبده ثابت بوعده

ولا يحفل مسلم بحكمة التعذيب ولا فهمه بالنسبة لضعفه
وقدرة الله المطلقة وكم مسلم اساس ايمانه الحب ورأس ماله في
اعماله الطاعة وليس له من مطمع غير القرب وهو مع ذلك
شديد الخوف من الله كثير الشفقة على عباده فاذا ذكر الله
وجل قلبه واذا سمع آياته ازداد ايمانا اما مسألة تصوير الاله
فهذه جرأة ينشأ عنها التحديد والمسلم ينزه ربه عنه كما ان دينه
يأبى عليه التجسيم ولا يتجاوز في استحضاره اكثر مما عرفه
به من صفاته واسماؤه ولا يكون في حاجة الى شيء من ذلك
اذا تلا بتدبر سورة (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد
ولم يكن له كفواً أحد)

واذا اشتد خوفه تلا بتدبر قوله تعالى

(قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من
رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم)
أليس كذلك ؟ « ققلت له

= هذا صحيح

فقال :

= كنت أود لو مكثنا هذا الرجل من المناقشة ان

اطرح عليه سؤالا في نظرية التقييد فقد سمعت بالأمس عثمان
يعترض على سالم فيقول : انك بتجريدك الانسان من الإرادة
وقولك انه مسير لا مخير جعلته كالحيوان الاعجم

= وبماذا اجاب سالم ؟

= قال له : هذه مغالطة ضعيفة وما المانع ان الانسان
يشبه الحيوان الاعجم في صفة مع انه يشاركه في كثير من
الصفات فهو يشارك الحيوان في انه يأكل ويشرب ويهضم
ويرى بعينه ويسمع بأذنيه الخ . أتريد ان يسمع الانسان
بغير أذنيه كي لا يشبه الحيوان في ذلك ؟

على اني لا انكر ان الانسان ارق اصناف الحيوان
واشرفها وهو يمتاز عليها بقوة العقل والتفكير كما يمتاز بعضها عنه
بقوة بعض الحواس كالشم والنظر ولا ما من ان يكون مقدار
الإرادة اي الجزء الاختياري عنده اكثر منه في باقي الحيوان من
غيره ان يكون ذلك كافيا لجعله مطلق الحرية أو انه يشبه
الحيوان في مطلق التقييد . فقلت له

= ان الرجل ما زال على قيد الحياة مقيدا بجوارنا فزره متى

شدت املك نجد فرصة تتمكنك من سؤاله .

هل في ذلك من معذرة

إذا جاز لأُتسان أن يتأجر في صنف من البضائع برأس
مال قدره مائة جنيه فقط وهو يعلم أن كثيراً من الشركات
تأجر في هذا الصنف بآلاف الجنيهات ولا يكون ملوماً سواء
يج أم خسر

وإذا جاز لأُتسان أن يشتغل بحرفة الطب بعد دراسته
هو يعلم أن الوف الأطباء الماهرين في بلده ولا يكون ملوماً
على عمله .

وإذا جاز لأُتسان أن يشتغل بالشعر بجانب آلاف المحيدين
من الشعراء وهو يعلم بذلك ويمن تقدمه منهم بشعر خالد . إذا
جاز لكل من هؤلاء أن يشتغل بما تيل إليه نفسه ولا لوم عليه
ولا تريب

فهل يحوز للأُتسان أن يشتغل بالفلسفة ويكتب فيها
هو يعلم أن في العالم آلاف الفطاحل من الفلاسفة المحيدين ؟
وهل على الإنسان أن يترهب بمزاولة ما يميل إليه من
عمل حتى يصل إلى درجة الكمال ؟

مقالة نشرت في جريدة السفور

رأي

في انتقاد محمد افندي جلال

لديوان المازني

بإني الله بخادم أديب بقرأ جرائدي قبلي وقد لا يتكلف
ردها الى متضدتي لو أعجبتني . اني مشترك من مدة في جريدة
السفور التي احتجبت عني عقب اشتراكي فلم أرها أمامي الا
من يومين . لا أعرف لماذا سمح الخادم بردها . اعلمها لم
تعجبه في هذا الأسبوع ؟ فتحتها فوق نظري على اسم فاضل
من معلمي الترجمة ربما كان اذكي معلم ضليع باللغات صادفته
في دراستي هذا الفن . وقد درست على عدد عظيم غيره ولكن
ذلك بكل أسف لم يغير النتيجة التي اعتدتها وهي السقوط في
الامتحان . بعض الناس وهبهم الله ملكة تمكنهم من قول
الشعر وبعضهم يخصصهم بسهولة تعلم اللغات الاجنبية أو فهم
الرياضيات مثلاً أو ما اشبه . اما انا فوهبني قوة تمكنني من

السقوط في الامتحانات بتلك السهولة على انه لا يهمني ما دمت
سائراً في طريقي

عبد القادر افندي المازني كان شاعراً كبيراً اذ كنت
تلميذاً كسلاناً كما عرفته منتقداً لبقاً . ولم يكن ذلك رأيي فيه
وحدي بل كنت أسمع من الاساتذة الآخرين وخاصة عارفه
مثله ، وارى اعجابهم بذلك

كان المازني افندي في ذلك الحين « وقد مضى عليه
بضعة أعوام » ينتقد شعر حافظ بك ابراهيم ويعيبه بعض
السركات وينشر آراءه فيه بأنه لا يستحق كل ما نال من الشهرة
وما يعززون اليه من النبوغ ويظهر الآن انه وقع في الفخ نفسه :
وجهت اليه سهام المتقدين بعبثونه بما عاب هو به حافظاً . من
ينهم شاب اديب يكتب في السطور باسم محمد افندي جلال
يقول انه صديق المازني افندي . أظهر لنا في عدد ١٣ اكتوبر
بعض مرققات صديقة الشعرية بطريقة دالة على حدة الذكاء
والصرامة . والحق ان عمله دقيق يشهد بهارته وسعة اطلاعه

أما انا فأعترف كما اعترف بعجزى عن مثل هذا العمل .
وكثيراً ما اسائل نفسي ما فائدة تضييع الوقت في النقد

والثقيب عما عساه أن يعيب بعض من يشتهرون من الشعراء ؟
ولو كنت قادراً على مثله لضننت بوقتي أن اضيعه في توضيح
سرقات الشعراء للناس

يقول بعضهم أن حافظاً بك إبراهيم سرق أغلب افكاره
ومعانيه في شعره من المتنبي وأبي العلاء . هذا كما قلت عمل
دقيق يدل على سعة الاطلاع ولكن ما غائده وما الغرض منه ؟
هل المتنبي وأبو العلاء سرقا معانيهما من (ارسطو) أم خلقا
هذه المعاني من العدم ؟ فيه قولان :

من الناس من يدعي صحة الاول وانها أخذت جميع المعاني
من حكم (ارسطو) ولكن هذا لا يحل المسألة تماماً لانه
يبقى علينا معرفة منبع افكار هذا الأخير . فهل هو خلق افكاره
من العدم ايضاً أم هي افكار عصره احسن جمعها

يبد أن طائفة من الناس يقولون انه أخذها من المدينة
الهنديه التي وجدت قبله كما ان هذه أخذت من المدينة الصينيه
التي وجدت قبلها وهكذا . ولكن هذا على العموم رأي
يحتمل الصحة والخطأ وخبر يحتمل الصدق والكذب

وبعضهم يظهر للناس سرقات المازني افندي من (هود)

و(شكسبير) وبعض شعراء الانكليز: هذا شيء جميل ايضاً
ولكن من أين سرق (شكسبير) او (هود) آراءهما؟ ربما
خلقها من العدم ان الله قادر على كل شيء يهب من شاء من
خلقها ما شاء انما هذا رأي ضعيف مشكوك فيه

منذ شهرين قابلت فكرة سررت منها في مكتب
(أناطول فرنس) الكاتب الفرنسي الشهير ومؤداها ان (الإنسان له
فائدة عظيمة ومن غيره لا تظهر للحياة قيمة . ولو كان الانسان
في سرور دائم لا يكون ذلك سروراً بل يصبح أمراً مألوفاً)
قد دهشت حينما وجدت تلك الفكرة بعينها تكاد تكون حرفية في
شعر «موسيه» الشاعر الفرنسي الذي وجد من زمن بعيد قبل
الكاتب . (فاناطول فرنس) اخذها من (موسيه)

ودهشت اكثر من ذلك عندما صادفت الفكرة بعينها
في كتاب فلسفة . واتضح لي ان هذه الفكرة بعينها كانت
موجودة عند اليونان من القدم تدرس في مدارسهم وتعتبر
من الافكار التي يستحسنونها ويبنون عليها جزءاً من فلسفتهم
ظهر لي ان لا (أناطول فرنس) ولا (موسيه) بجلالة
قدرهما اول من ابدع هذه الفكرة واصبحت افكر فيما لو

كانت الجملة اللاتينية التي معناها (لن نجد شيئاً جديداً نحت
الشمس) صحيحة او كاذبة ؟ فلئن صحت لكان معناها ان
لا يقول الانسان شيئاً جديداً بل يعيد بعبارات وأساليب مختلفة
ما قيل وأعيد مراراً . يمكننا القول بأن العلم تقدم أي اننا
اكتشفنا أشياء كانت مجهولة للقدماء ولكننا لا يمكننا ان نقول اننا
وجدنا فكرة فلسفية واحدة او حكمة لم يقلها القدماء . ان
الفلسفة لم تتقدم خطوة واحدة واننا لم نفسر موضوعاً عجز امامه
الاقدمون فالأفكار اليوم في بعض المواضيع غامضة كما كانت
عندهم ولم نقل فيها شيئاً يذكر والدليل ان الناس لا يزالون
يجهلون نظرية الحياة والموت . والروح . ونظرية المادة وثبات
وجود الاله . ولو وصل انسان الى توضيح شيء منها اكثر مما
قاله القدماء أي انه تمكن من اكتشاف حقيقتها لخصع أمامه
العالم أجمع

يقول محمد افندي جلال ان المازني أفندي اتفق مع
(هرد) في فكرة فما الغرابة في ذلك ؟ أليس كل منهما انساناً ؟
وهل من المستحيل ان يتفق الاثنان في فكرة ؟ توجد الوف
الافكار لا يتفقان فيها فلم يذكرها جلال افندي ؟ الظاهر

ه لا يرى (ككثير من الشبان) في كل فكرة الاشياء
ساسين : خالق لتلك الفكرة ، واس سرقتها . فيعين هو
لخالق والاص كما يعن له ولعمري لا ادري على اي قانون
تقلي يفعل ذلك ؟ ربما كان محمد افدى جلال مصيباً فيما يدعى
بانكنا نرجوه ان يوضح مراده ويشرح نظريته بطريقة سهلة
بتيسر فهمها لكل قارئ ، فاني من الذين لم يفهموا معنى انتقاده .
اعلم يكتب للأذكاء النابغين وينسى ان كثيراً من قراء
السفور طلبة لا يفهمون الشيء الا اذا كان مشروحاً شرحاً تاماً
الا يجوز ان تلك الفكرة (اذا كان الكلام من فضة
فالسكوت من ذهب) طرأت على ذهن عربي قبل الهجرة
بقرون وفي الوقت نفسه طرأت على فكر ياباني في الصين ؟
فأي الرجلين يعتبر اللص في تلك الحالة ؟ وهل من المستحيل
ان تطرأ فكرة على رجلين او اكثر في وقت واحد ؟ تقول في
مقام النصح لطفل مثلاً او تكتب : لا تسرق ! لا تكذب !
والا فلا تعتبر انساناً شريفاً الخ
من اين سرقت هذه الفكرة ؟ وبأي جرأة تستعملها ما دام
غيرك استعمالها قبلك ؟

هذا مثل فقط بوضح ما اريد فربما لا تقول ولا تكتب شيئاً من ذلك بل تكتفي بترجمة (شكبير) والقبض على النصوص . لم يسبق لي معرفة جلال افندي معرفة شخصية ولكنني عرفتة بكتابته جديراً بالاحترام فلنسمح ان اناقش رأيه بلطف وزدعة على قاعدة حسن التفاهم وندقق النظر معاً فيما يأخذه به المازني افندي ونسائل عقولنا : هل افكار الانسان موقوفة على غيره كما تتوقف ذاته ؟ فان كلا بنا يولد وكان فيه طباع عائلته والأمة التي هو منها وبعض طباع معينة تذكر بطباع اجداده . يظهر فيه جسدها وسيئها بكل اسف . ان هذا التسلسل في الطباع التي تتبعها افكار مناسبة لها ظاهر بوضوح وقد لاحظته الناس من قديم الزمان . كم من صبية برآء ذاقوا من العذاب طول حياتهم من ادواء هي نتيجة اعمال آباءهم (وكثير ما يوجد ذلك في ابناء الحشاشين ومدمني الخمر) فلاحق هؤلاء المساكين عقاب سيئات لم يفعلوها وكثير ما يكون ذلك سبباً في ضعف عقول الاولاد وسخافة افكارهم ؛ وكلنا تنسى ذلك ونلوم الاولاد على غياوتهم ونؤاخذهم على افكارهم الضعيفة . لنترك ذلك ولنقصر القول على البحث فيما

ملق بالعلوم والآداب التي هي مجال العقل

ان قوة تفكيرنا ومقدار قيمتنا متوقفان على أناس البيئة
في نعيش فيها ففي عائلتنا وفي مدارسنا وبمخالطة من حولنا
كونت جميع مواهبنا من صغرنا شيئاً فشيئاً . وتعلمنا كيف
نكر ونتكلم ونحب ونريد . ففي أى صنعة يبدىها الانسان
شاهد عمل مدنية مضت . وكل انسان لدرجة معينة يعبر عن
لكرة من الافكار الانسانية في وقته

لو قرأ الانسان كتاباً واحداً منذ قدرته على التفكير لاثّر
ذلك على افكاره دون ان يشعر فيصبح يفكر بكيفية الذين
فكروا قبله وبهذه الكيفية تتسلسل الافكار وتكون سلسلة
طويلة لا يشغل الانسان فيها الا حلقة صغيرة لا تذكر وحدها
نجد في اعتقاداتنا وافكارنا وطباعنا آثار الوسط الذي
نشأنا فيه فمن ذا الذي يمكنه ان يحدد بالضبط تأثير آبائنا
ومعلمينا واصحابنا والكتب التي قرأناها على افكارنا ؟ . . . ومن
ذا الذي يمكنه ان يحدد تأثير آراء رجل كابي العلماء المعري
او (ماكولي) او (فكتور هوجو) علينا ؟ الخ

ان افكار الغير هي التي كونت افكارنا فكيف يستغرب

الإنسان بعد ذلك ان يتفق رجلان في عدد معين من الأفكار؟
لم تلومني على فكرة اخذتها من (هود) ولا تلومني على عشر اخذتها
من معلم العربي و ١٥ من صديق لي و ٢٥ من المريية و ٣١٦
من البواب ؟ السنا جميعاً نسير على هذا المنهج ؟

يجب ان نلاحظ أننا اذا كنا نتوقف على غيرنا فغيرنا
ايضاً متوقف علينا وهو يرجح او يخسر من اعمالنا مهما كانت
مراكزنا وحظنا من الانسانية في المجتمع فان جميع اعمالنا حتى
التي تظهر لا أهمية لها قد تكون لها نتائج غريبة . فبذرة يفرسها
رجال اليوم عبادة عن ظل يحضرونه لا ولاد القد كما ان نصيحة
تعطى لشاب او عكسها عبارة عن فضيلة او رذيلة نبثها في
نفسه . وتلك آراء نبثها فيهم يستعملونها فيما بعد في كتاباتهم
ومناقشاتهم .

قبل ان ينتهي الكلام على هذا الموضوع اذكر ما قاله
الشاعر (موسيه) في هذا الصدد :

« عزمي ان أقول شعراً هذا اليوم . . . حكاية معينة . .
فهل اتم متذمونها وتستقدونها لذلك . . . هل الذنب على
الحكاية لو كتبتها هكذا ؟ »

« ربما تقولون ان (بيرون) كان نموذجاً لي فيها . ألا
رفون ان (بيرون) نفسه كان يقلد (بلشي) ؟ اقرأوا الطلاب
انتم ترون ان كان (بيرون) لم يسرق منه . اسمعوا : لا يوجد
شيء ملك شيء والكل يملك الكل . يجب ان يكون الانسان
باهلاً كعلم مدرسة لكي يدعي ان في قدرته ان يقول كلمة واحدة
يريد فكرة) لم يلفظ بها أحد قبله . ألا ترى ان زرع الكرنب
هو تقليد الغير . . . »

أناقش رأي جلال افندي بناء على طلبه وأني وياه لعل
اتفاق في لوم المازني افندي لدمه حافظاً منذ ست او سبع
سنين وأخذه على ما يسميه (سرقات من شعر الغير) كما ألوم
جلال افندي على ما يكتبه الآن تشهيراً بالمازني . ولا أعتقد
ان ذلك سيكدره . فذهبي لوم كل من ينتقد شاعراً بدعوى
انه سرق من غيره . . . ولا أريد بذلك انه يمكننا ان نأخذ من
كلام الغير ما حلالاً وننسبه لانفسنا . كلاً فمثلاً لو اخذت
كتاب الدكتور طه حسين وطبعته مدعياً انه كتابي لكنت
لصاً حقيقة . أما اذا وضعت كتاباً في موضوعه وضمنته كثيراً
من المعلومات التي ضمنها كتاب الاساذ او ما يشابهها بعبارة

أخرى مثل عمي انى العلاء ونحر يمه اللحم وتركه الزوج الى
آخره . فلا يسمى ذلك سرقة و كذلك الآراء التي أبديت في
الرجل وفي عقيدته وشعره وقدره الخ . فذلك امر مباح
للعوم والمؤلف التعبير والتركيب

ان الافكار والمعاني كنز للناس اجمع ومورد عام كل يأخذ
منها ما يروقه ويحتاجه في تكوين كتاب او قطعة شعرية
كما يبنى قصر من الحجر والرمل والاحص فتلك المواد يستلزمها
كل بناء واللباني الشكل الخاص الذي نسقه فقط . كذلك
المؤلف او الشاعر يغترف من مورد الافكار العامة ما يحتاجه
ويصوغه على ما يلائم ذوقه ومقدار حظه من الجودة فان
اعترضه منتقد ونسبه للسرقة من غيره كان له ان يدفع عن
نفسه بقوله للمعترض « انى لم ازد في عملي على عمل من نسبت
للسرقة منه فعده اصلاً مثلي والا فاسكت »

احمد راسم

بالرمل . الاسكندرية

تمر الكتاب

جميع مناقشاته خيالية دائرة بين اسماء منتحلة لم يقصد
بها انسان

وقع بعض خطأ مطبعي بسيط لا يعزب عن فطنة
القارئ الا هتداء الى صوابه ولكنه قليل فلم نر داعياً لوضع
صحيفة للخطأ والصواب